يسقــط الملــك

قصص

رضا الأشرم

الفـــــوارس

أسسها الشاعر عماد قطرى

المراسلات أجا – دقهلية – نجاتى عبد القادروهبه

٠٥٠ – ٦٤٥٥٨٩٥

٠١٠٢٣٤٦٩٨٤

نجاتى

استهلال

تبدو الساحة الثقافية فى العالم العربى عامة وفى مصر خاصة أشبه ما تكون بساحة فوضى عارمة ولعل فى ظروفنا السياسية الراهنة ما يشى بأسباب هذه الفوضى فما واقعنا الثقافى إلا انعكاسا مباشرا للواقع العربى المتردى الذى نعيشه وفى الوقت الذى تسعى فيه جهات عدة للنيل من ثقافتنا وهويتنا وتراثنا وماضينا وحاضرنا بالتأكيد مستقبلنا أيضا ، لا نجد من يحمى ساحتنا الثقافية من حماقاتها المتمثلة فى التسطيح والتهميش وغير ذلك ، كل ذلك على حساب ثقافات أصيلة وإبداعات جادة وأفكار مستنيرة وفى محاولة جادة منا لإظهار عظمة هذا الأدب العربى الخالد وإظهار أن فى الأمة من يحمل مشعل التنوير الحق كانت هذه السلسلة نعتز فيها بكل قيمة جمالية تعلى شأن الإنسان وتنير طريقه ، نعتز بكل إبداع يرسم خطى الحب والنقاء ويرصد الواقع بلا إسفاف أو تدن أو تجن ، ويستشرف أفاق مستقبل نسعى أن يكون جميلا وضيئا .

هذه السلسة (الفوارس) تدعو إلى أدب جديد ، أدب يدعو إلى الجمال والعدل ،أدب مقروء مفهوم .. لا أدب الطلاسم ،أدب يستفاد منه .. لا أدب التسالى والحواديت ودغدغة المشاعر ،أدب ينتمى لهذه الأرض بنيلها وشمسها وناسها، أدب يدعو إلى الفرح لا إلى الهم والغم والكرب، أدب يدعو إلى المقاومة .. مقاومة القبح أيا كانت مظاهره ومقاومة الظلم أيا كانت مصادره .

هيئة التحرير

إلى شبراويش

فـــــى

صباح جديد

رضا الأشرم

الصياد والنهر

يوم أتاه ولده حاملا الصحيفة بيمينه كانت البداية٠٠ أخبـره بأنـه متأكد أنهم آتون عما قريب ولا مفر٠٠ لم يصدق الصياد العجوز ولده وراح يبسط شباكه على الأرض ليصلح ما تمزق منها ساخرا من تلك الأخبار بنصف ابتسامة، أمّا الابن- والذى يعمل منذ سنين على ظهـر سفينة صيد عملاقة فى بورسعيد- فقد عاود قراءة النبأ علـى مسـامع أبيه٠

استشاط العجوز غضبا واتهم ابنه ومن كتبوا هذه الأخبار بالتخريف٠٠ حذره من معاودة الحديث حول هذا الموضوع، نهض الابن آسفا وفى طريق صعوده إلى الخص- حيث زوجة أبيه الشابة وأخيه الصـغير- كانا خلف الخص حيث تفوح من إناء فوق الكانون رائحة طعام شهى٠

هز رأسه ممتنا ورسم على وجهه ابتسامة واهية ودخل الخص ، حمل أخاه الرضيع٠٠ أحكم حوله اللفافة وفى طياتها وضع جنيهات خمسـة وانصرف٠

في فجر اليوم التالى وقبل أن ينزل الصياد إلى النهر؛ يلم الشباك، أفاق على صوت مزمجر لشاحنة سكت صوتها فجأة، فتح الخص وأطل برأسه يتأمل الطريق جيدا٠٠ وإذا بحفار عملاق محمول على ظهر شاحنة، وثمة جلبة مسموعة لعشرات من الرجال ٠٠إذاً فالخبر صحيح٠٠ هذا ما قاله فى نفسه، وتذكر ولده، وندم على جفائه معه، اقترب أحدهم منه وقال بلهجة آمرة

- إن كان معك أحد فأخرجه بسرعة فليس لدينا وقت

امتثل للأمر، أيقظ امرأته التى حملت الرضيع بسرعة، وحمل هو كل حاجياتهم فى صندوق من الجريد كبير، وابتعدوا قليلا يرقبون ما يحدث٠

نزلت الشاحنة ببطء رويدا رويدا، مدمرة فى طريقها الخص، ومكتسحة مساحة صغيرة خضراء كان الصياد قد زرعها بشتلات طماطم، وانغرست العجلة الأمامية فى الطين فأصدر موتور الشاحنة صوتا لم يسمع له الصياد نظيرا من قبل ٠

كان الصبح قد تنفس ولم يبق للظلام من أثر، ولاحظ الصياد أن أغلب من أتوا كانوا من الأجانب، فالوجوه حمر والعيون زرق، فقط يرافقهم اثنان أو ثلاثة من أولاد البلد، ولم يكد يمر وقت قصير حتى كانت خيامهم منصوبة بين الشط ومجرى النهر

تذكر أن شباكه لم تزل تحت الماء، لأول مرة يتركها حتى هذا الوقت من النهار٠٠ مشى متثاقلا٠٠ وعاد وفى سلته المصنوعة من البوص

سمك وفير كان لم يزل حيا يتحرك، أتاه واحد منهم- خمن أن لهجتــه قاهرية- ليبتاع السمك، لم يدعه يساوم ، عرض جنيهات عشرة، فوافق وذهب إلى امرأته التى ساعدته فى رفع صندوقهم الكبير إلــى حيــث ابتنت خصا جديدا جاعلة بابه بعكس خيام الأجانب.

بعد أيام ثلاثة ضج المكان بالحركة.. أتت رافعة كبيرة نصبت الحفار فى منتصف النهر تماما.. أحس الصياد كأنما غرسوه فى قلبه هو لا فى قلب النهر.. النهر الذى ولد وشب وشاخ فوق مياهــه.. والــذى أوصى امرأته منذ زمن أن يدفن فى شاطئه.. إذاً فعلى النهر الذى لم يكن يسمع سوى وشوشات القمر لأمواجه الحانية، عليه الآن أن يتحمل هذا الحفار الذى جاوز بقامته مئذنة الجامع الكبير بالقرية.

ربما لم يستفد أحد من هذا المشروع كما استفادت "جليلة" بائعة الدجاج، فمنذ صبيحة اليوم الأول لقدوم الأجانب أتت بعشر دجاجــات، ســألها مرافقهم ذو اللهجة القاهرية ذات صباح – أليس لديك دجاجات من نوع آخر.. ربما توسم من مشيتها أنها تمتهن أقدم مهن التاريخ.. غمزت له بحاجبيها وانسالت على لسانها.

-أنا تحت أمرك

بدأت ببنات خمس كانت تأتى بهن قبل منتصف الليــل وتحــرص أن تغادر بهن الخيام فجرا، رآهن الصياد يوما وهن يتسللن واحــدة وراء الأخرى كنعاج بائسة خلف راعيها، وكن حريصات على ألا يسمع أحد حتى حفيف ملابسهن.

لم يستطع الصياد تحمل ما يجرى٠٠ فقد شهيته للطعام، أصبح نهمـا للتدخين وشرب الشاى، لم يكن يتخيل أن صوت الحفار سيكون بهـذا القدر من الازعاج٠٠ تناقص السمك يوما بعد يوم٠٠ تعكـرت ميـاه النهر وتحول لونها إلى الأسود من جراء الوحل الذى تسـببه حركـة الحفار أسفل قاع النهر٠

أتته زوجته الشابة – عقب عودته ذات صـباح مـن الصـيد خـالي الوفاض، هددته بتركه وحيدا إن لم يغادر هذا المكان

– لم يعد أمامنا سوى زبالة الأجانب كى نأكل منها

لم يدعها تكمل ، نهض رافعا الصندوق الكبير، وحملت هى الرضـيع، وقبل أن يتحرك القارب تذكر ولده، فتناول حذائه وتركه بالخص جاعلا الفردتين فى اتجاه واحد، واحدة أمام الأخرى فى اتجاه الجنوب لعلـه يأتى يوما ما٠

لما ابتنى خصه الجديد فى زمام قرية أخرى كانت الأخبار قد سـبقته، نزل إلى المقهى الوحيد بها، لم يكن هناك حديث سوى حديث الـنفط، بينما جلس أحد الرواة ممتطيا كرسيا عاليا وحوله جمـع غفيـر، راح يحكى لهم أن النهر لم يكن فى الأصل إلا نهرا من البترول من قـديم الزمان، وتحول فجأة إلى نهر من الماء عقب أحد الـزلازل العنيفـة، وأقسم لهم بأنه رأى بأم عينيه النفط يعوم فوق الماء هناك بالقرب مـن الحفار٠

تركهم الصياد العجوز ملوحا بكوب الشاى لينزل منكسرا محدثا صوتا صاخبا ·· ركب القارب وجدف بغضب ليتأكد بنفسه، وصـــل إلـــى هناك، لم يسمع صوت الحفار على غير العادة، ولم يشم رائحة جاز أو غيره·· بل كان الأجانب حول الخيام فى حالة استرخاء تام، وصوت شريط موسيقى غربية عال ينبعث من مسجل كبيـــر ·· حينئـــذ أقفـــل راجعا شاكرا الله على فشلهم الذريع·

لم يكد يمر أسبوع حتى فوجئ بنفس صوت الشاحنة يقترب، كان أيضا فى نفس موعده السابق فجرا·· خرج إليهم بعدما توقفوا، وجدهم هـــم بأعينهم لكن هذه المرة فترت همتهم وخفت نشاطهم كثيرا·

تقدمهم ذو اللهجة القاهرية مقتربا من الخص ولما فوجئ بالصياد نفسه صاح مستغربا !!

- أهو أنت ؟!

لم ينتظر كى يراهم وهم ينصبون الخيام، وإنما رفع صندوقه الكبيـــر وأيقظ امرأته ، وقبل أن يغادر الخص وضع فردتـــى حذائـــه ناحيـــة الجنوب وبسرعة ركبوا القارب·

راح يلم الشباك، وعينه معلقة بالشاحنة وهى تنزل المنحـــدر بتـــؤدة، وكان كلما أخرج جزءا من الشباك وتلألأت السمكات فى ضوء الشمس المشرقة رفع واحدة منها ملوحا بها فى الهواء قبل أن يرمى بها فـــى حجر زوجته الفرحة، وهو يصيح·

- صباحكم جاز يا سعادة البيه

ويمسك بأخرى ويلوح بها ويقول

- صباحكم زفت يا سعادة البيه

وراحت ضحكاته تدوى بين جنبات النهر فــوق أمواجــه المتهاديـــة، والصياد العجوز يجدف ناحية الجنوب بقوة وثقة.

-تمت-

معونة الشتاء

لم ينقشع الضباب بعد.. أغصان الشجر ابتلت تحتها الأرض بقطرات الندى، بينما سرت برودة تصيب الأبدان برعشة، وضع يده على رأس ابنته التى كان شعرها منفوشا ولم يزل يغالبها النوم.. حافية تمشى وثوبها لم يتغير.. منذ عام يتدلى خلفها.

- يا ابا أنا بردانة

وكانت أسنانها تصطك وأنفاسها تتسارع ، ومن بعيد رأى الناس يخرجون من المسجد فرادى.. محكمين العباءات السوداء حولهم وامرأة متلفعة على رأسها طاجن حليب تمشى مسرعة وتلميذا جلس القرفصاء مسندا ظهره لسور المدرسة.. يفرك يديه.. يستولد دفئا عصّيا

- يا ابا أنا بردانة

يأخذ كفها الصغير فى يده ويسرع.. فى ديسمبر الماضى وصلت الشاحنة ممتلئة عن آخرها.. سجل الرجل كشفا طويلا.. تجمهر

الناس وتجمعوا حوله٠٠ امتدت أيديهم وعلا صياحهم، ولما رآه من بعيد حمل على صدره لفة من الكستور وناوله إياها وربت على كتفه كان قد وصل الطريق الزراعى٠٠ البيوت عن يمين، والترعة التى يتصاعد منها البخار عن شمال٠

- يا ابا أنا بردانة

كانت هذه المرة تتأفف وخطواتها تقصر، صباح عيد الفطر الماضى ذهب إليه٠٠ قالوا لم يخرج بعد٠٠ دار فى الحديقة وأكل برتقالا كثيرا وحزن لما خرج ولده يمشى فى الممر الطويل يقول بجفاء

- الحاج مريض

سمع أنه لزم البيت وآلت لابنه إدارة المصنع

- يا ابا أن بردانة

لمح البيت من بعيد محاطا بالشجر من كل جانب٠٠ السور عال ومتين٠٠ شدت عليه أسلاك حادة لم تكن موجودة من قبل٠٠ أمس سمع الناس يقولون عقب صلاة الجمعة أن الرجل أمر ابنه بألا يقطع العادة٠٠ أيضا امرأته سمعت نساء الحارة يؤكدن أن السيارة دخلت المخزن والتوزيع باكر٠٠ اقترب٠٠ البوابة الحديدية العملاقة مغلقة وعلى قضبانها تجمعت قطرات الندى٠٠ حملق فى النوافذ والأبواب، ما من مصباح يشع٠٠ أمسك بالقضبان وراح يهزها بقوة ويصرخ فى رجاء

- يا حاااج

فوجئ بكلب ضخم يجرى نحوه.. أخرج رأسه من البوابة وراح ينبح. كشف فمه الأسود عن أنياب طويلة حادة، لحظتئذ أمسكت البنت بجلباب أبيها وقالت وقلبها يرتجف

- يا ابا أنا بردانة

تمت

الشرفة الذهبية

لم يكن هذا الوقت موعدا للضوضاء، فالشمس لــم تشــرق بعــد ونظرت فى الساعة فتأكدت أن الباعة الجائلين لم يحن موعد افتراشهم الأرض إلا أن صوت ارتطام شئ بجدار البيت جعلنى أنهض مسرعا إلى الشرفة لأستطلع الأمر ٠٠ كــان الضــباب جاثمــا علــى صــدر المدينة ٠٠ منذرا بحر لا طاقة لنا به لكن ثمة رؤوس أشــباح تتحــرك تحت الشرفة مباشرة، أمعنت النظر فتأكدت أن صوت الارتطام لم يكن سوى صوت ارتطام السلم بجدارنا ٠٠ نعم السلم الذى نصــبه عمــال البلدية على الحائط، ورحت أتبين وجوههم شيئا فشيئا ٠٠ كانوا بــزيهم ذاك عديم اللون، فلا هو بالكاكى ولا بالرصاصى، وكانت أيديهم ذات الأصابع الطويلة تحرك الجير فى الجردل، فأيقنت أنهم بصــدد تنفيــذ الأوامر، التى لم تكن بالأمس إلا شائعات تدور علــى الألســن فــى المقاهى ٠٠ فقد سمعنا أن المحافظ الجديد – والذى عين بعد فضــيحة سلفه– أصدر أوامره بطلاء كل البيوت المطلة على الشارع الرئيســى باللون الأزرق، وذلك كى تسمى مدينتنا بالمدينة الزرقاء، بالقطع فكــر

فى هذا المشروع ليثبت أن لديه أفكارا جديدة ومبتكرة، وأنه لا يمشى على خطى سلفه الذى سقط سقطته المدوية.
حتى أنه صرح يوم لقائه الأول بالجمهور فى قصر الثقافة أن المدينة ستكون أبهى فى زيها الأزرق، أما اللون الأبيض هذا – ومطّ شفتيه ساخرا– فلون باهت لا معنى له، إضافة إلى أنه لون يظهر عليه التراب بوضوح، أما الأزرق – ولا أدرى لم دق المنضدة بقبضة يده ساعتها كجنرال ؟– فيكفى أنه لون البحر، فى نفس الوقت الذى يعلم فيه الجميع أن المدينة لا تطل على بحر أو بحيرة وإنما يخترقها النيل منذ الأزل، حتى أنها اشتهرت بعروس النيل
كانت صوصوة العصفورين المعلقين بقفصهما واضحا هذا الصباح، وراحا يتنقلان فى أركان القفص بحيوية ونشاط باديين للغاية رغم قطرات الضباب التى تجمعت على ريشهما، وعلى الفور دخلت فأحضرت لهما الحب والماء، وهمست لهما بضرورة ترك الشرفة هذا النهار.
فالجير تحت أقدامنا يا خليليّ (قلتها ويدى تربت على القفص) وحملته وأغلقت الباب ولما نزلت إلى الشارع هيّجت رائحة الجير جميع حواسى، فأسرعت الخطو، مما جعل العمال يتضاحكون لسرعتى ولمنظر القفص الذى بين يدى.

لكنه مثل كل صباح كان فى انتظارى على الناصية، لم ينتبه لوقوفى أمامه، كان مشدودا بكليته للصحيفة التى بين يديه – حتى رفعت الحذاء فوق الصندوق الخشبى ليمسحه كالعادة إلا أنه لم ينتبه، فسألته

- أما من جديد (وأومأت إلى الصحيفة)
- فأجاب بابتسامة ساخرة واثقة ناظرا للقفص الذى بين يدى
- يا أستاذ، "سعد" قالها من زمان

(يا صفية غطينى وصوتى علىّ)

وتركته واخترت الرصيف الضيق الكائن بين الطريقين.. جلست مواجها البيت مراقبا ما سيفعلونه

من بعيد بدت فرق العمال ذات الملابس عديمة اللون منتشرة على الجانبين مسلحة بالجرادل، فتعجبت أين كان كل هؤلاء !

وإن هى إلا ساعة حتى كان اللون الأزرق يزحف على كل البيوت والشرفات حتى الأشجار المتناثرة والتى بان شكلها مضحكا، فالأغصان خضراء والسيقان زرقاء

أما شرفتنا – الشرفة الذهبية– فقد حان وقت سلخها فقد كان يكفى أن يصيح الراكب وسط زحام العربة (عند الشرفة الذهبية والنبى يا أسطى) حتى يقف .. وبالطبع لم أكن فرحا لهذا فقط، ولكن لأن الطلاء لا يتأثر ببرد أو حر .. بمطر أو طل.

أتذكر فى طفولتى أن أبى ظل أسبوعا كاملا يجرب ويخلط عدة ألوان، حتى عثر على هذا اللون الفريد – أيامها كانت شركة "مكة" للطلاء

ومواد البناء لم يصل إليها الغش بعد وورثت عن أبى عادته فى مسحها صباح الجمعة من كل أسبوع، فقط بقماشة مبللة بالماء أمر بها على الحائط لتبدو بالفعل كأزهى ما يكون اللون الذهبى المصقول

سمعت من بعيد جلبة، ورأيت أناسا يهرولون على البعد، تساءلت فأخبرونى وكنت لم أزل فى مكانى منذ الصباح أن أحد العمال هوى من فوق سقالته فى الطابق الثامن، وأنهم بصدد البحث عن سيارة تحمله وما من سائق يريد أن يقف ؛ أما الآخرون فقد رفعوا جرادلهم إلى الشرف، ولمّا بدأوا بفُرشهم يلطخون جدرانها بالجير الأزرق شعرت بميل إلى القئ، حملت الصندوق بالعصفورين، وكانا قد سكنا يتأملانى وكأنهما يقدمان خالص عزائهما لى، ويممت شطر النهر

****

وفى صباح اليوم التالى، وكان يوم جمعة، أمسكت بقطعة من القماش صغيرة ، وكالعادة بللتها، ورحت أمسح جدران الشرفة، ولم أدهش لما حدث، فبمجرد مرور يدى على الجير اختفى وانمحى وكأنه كان ظلا وزال.

تمت

التوتة

لم يدر أحد سر ما جرى لشجرة التوت العملاقة، إذ أنها فجأة وبدون مقدمات ذبلت أوراقها وتهدلت غصونها وهجرتها الطيور وأصبحت بين عشية وضحاها كعجوز شمطاء.

بيد أن ما حدث لحارسها كان يعلمه الجميع.. فالرجل الذى اتخذ من بطنها كوخا يبيت فيه ويأوى إليه، لم يُمكّن أحدا من تسلقها قط.. كان إذا تجمع الأولاد لطلب التوت تسلقها بنفسه فى خفة ليهز فروعها هزتين وينزل.. كان يتركهم يلتهمون التوت ولا يتذوقه، وكأنه طباخ حاذق واثق من صنعته، حتى بعد انقضاء موسم التوت، كان يجمع أوراقها بنفسه.. يعبئها فى أكياس لهواة تربية دود القز، وككل مساء كان يصعد إلى مكانه الأثير.. هناك فى قمتها.. حيث يجلس جلسته المفضلة، ويُخرج الناى.. ساعتها فقط كانت كل الكائنات ترهف السمع لهذه الألحان الشجية.

... لمّا أتته اللجنة، كان فى بطن الشجرة نائما كعادته متخذا وضعا جنينيا، كان بسرواله فقط مفترشا ملاءة بيضاء نظيفة، ورغم عريه هذا

إلا أنه كان يتفصد عرقا فى ظهيرة يوليو ، مد أحدهم رأسه ليرى من بالداخل، وعاد إلى زملائه ضاحكا يضرب كفا بكف، يدعوهم لرؤية ما رأى فاقتربوا بحذر، ومدوا رؤوسهم فاستفاق٠٠ وتراجعوا وهم يتضاحكون فيما بينهم، مدوية ضحكاتهم المجلجلة هناك على الجانب الآخر من النهر ٠

خرج من كوخه منحنيا٠٠ وراح يتأملهم٠٠ توجس منهم خيفة، فملامحهم لا تدل على أنهم من أولاد البلد، بل أجانب أقحاح مائة فى المائة٠٠ هكذا جزم وهو يمعن فى ملابسهم وشعورهم وسحناتهم٠٠ كان يرافقهم أحد معاونى الجمعية الزراعية٠٠ رجل لا يرتاح الحارس إليه إطلاقا نظرا لسمعته كمرتش كبير٠٠ حقيقة هذه يعرفها القاصى والدانى فى هذه الناحية كلها ٠

- بسرعة طلع خلجاتك بره الشجرة –هكذا أمره المعاون- عبس بوجهه٠٠ ها هم يقررون طرده من داره التى قضى فيها عمره، والتى لم يغب عنها يوما واحدا صيفا أو شتاء، ولمّا رأى المعاون الحارس لم يذعن لأمره، أزاحه جانبا ودخل باطن الشجرة مسرعا٠٠ وراح يسبه ويلعنه هذا الذى لا أهل له ، ولمّا همّ يجمع أشيائه يستعد لرميها بالخارج، دخل الكوخ عليه، وإن هى إلا لحظات حتى سمع أعضاء اللجنة صراخ المعاون صادرا من داخل الشجرة فأسرعوا إلى سيارتهم استعدادا للفرار٠٠ كان الحارس قد أشبعه لطما ولكما وركلا، وجرّه من قفاه على الأرض، وعند حافة الشاطئ أوقفه ورفعه إلى أعلى

وهوى به نحو الماء متدحرجا مشيعا إياه ببصقة كبيرة كان خليقا باستحقاقها عن جدارة.

صعد المعاون إلى الشاطئ ثانية بصعوبة وراح يتوعده ويتحداه وكان لم يزل يتابعه واضعا يديه فى وسطه واقفا على شاطئ النهر كملاكم محترف، إلا أن الحارس لم يرد عليه وتركه يلحق بسيارة اللجنة التى فرت كهرّة مذعورة.

لم تكد تمر ساعة حتى لمح من بعيد سيارة شرطة كبيرة معبأة بالجنود، تتبعها سيارة اللجنة.. وقفوا.. كان جالسا مسندا ظهره لشجرته، نزل الجنود مسرعين وأحاطوا به.. اقترب منه الضابط وغافله بلطمة على صدغه.. إذ كيف يمنع اللجنة من أداء عملها.. ماذا يقولون عنه فى العاصمة.. أفشل فى تأمين أعضائها الأجانب؟! .. هذا الضابط نفسه الذى كان ممتنا له اثر إنقاذه لطفل كاد يلتهمه النهر.. وهو نفسه الذى كشف له أسرار المذابح التى جرت لمساحات واسعة من أشجار الفاكهة.

أمر جنوده أن يرجعوا به إلى الخلف، أمسكوا به واقتادوه إلى جانب السيارة، بينما راح يتبسط لأعضاء اللجنة بأن يباشروا مهمتهم.

قبل أن يدخل المعاون إلى باطن الشجرة حيث متاع الحارس استدار إليه برأسه وهو مكبل بأيدى الجنود، ابتسم شامتا ودخل... راحت أمتعة الحارس تتطاير من داخل الشجرة، جلبابه الأبيض.. طبقه الوحيد ..نايه العتيق.. وكثير من أوراق الصحف والمجلات..

كوّرها المعاون وأشاح بها بعيدا٠٠ تقدم أحد أعضاء اللجنة يفضها٠٠ فكانت كلها وبلا استثناء لمراكب تسبح فى النيل٠٠ آخر ما تطاير من الداخل كانتا علبتى الشاى والسكر و(السبرتاية)

خرج المعاون يكلم أحدهم٠٠ طلب منه فأسا٠٠ فأتته عشرات الفئوس ٠٠ (لأن الشاطئ كان قد غص بعشرات من الفلاحين)، وأتى من السيارة بكيس أبيض به مسحوق أزرق فاقع لونه، وراحوا يرطنون بلغة غريبة٠٠ حمل أحدهم الكيس ودخل الشجرة يرافقه المعاون حاملا فأسه٠٠٠ ودسوه بجانب جذع الشجرة، وأهالوا التراب عليه وخرجوا مبتسمين للضابط٠٠ وبينما يستعدون للتحرك راحوا يكلمون المعاون٠٠ والمعاون منكّس الرأس يسمع فيومئ بالموافقة

أمّا الضابط فأشار لجنوده بأن يصعدوا بالحارس إلى العربة الكبيرة فانطلقوا٠٠ وراءهم سيارة اللجنة، وحاول الحارس وهو داخل العربة أن يرى شجرته من بعيد إلا أن الغبار المتطاير والكثيف الذى أثارته السيارتان حجب شجرة التوت العملاقة٠

تمت

يسقط الملك

ابتعدت السيارة عن المدينة، ليس بالطريق سواها، الريح والتراب زادا من قبح الصحراء لديه.. استأذناه في ربط العصابة، فطلب منهما أن يخلع النظارة أولا، أحكمها الشاويش حول عينيه، أحس أن السيارة حادت عن الطريق المرصوف فحينا تهبط وحينا تصعد، ظل يسائل نفسه وسط ظلمة عينيه أليس غريبا أن ينتدبوه لمهمة بالسجن، ترى ماذا فعل المساجين؟ الإشارة كانت واضحة، نرجو أن يكون خبير التزييف والتزوير جاهزا في تمام التاسعة، لمّا تأمل الخاتم، رأى نسرا غير كل النسور.. واضحا قويا.. بل فيه من ملامح الفرعون ذاته، قاطعه صوت الشاويش" حسنين" وهو يربت على كتفه.

- سامحنا يا أستاذ.. الأوامر مشددة.

هز رأسه أن نعم، ثم عاد إلى شروده.. استقام الطريق قليلا، أحس أن الرصف عاد ثانية، لم ينفعه ذكاؤه في تحديد الاتجاه أشرقا أم غربا لكن الشاويش – ذا الصوت الهادئ – أراد أن يؤانسه.. فتحدث في ألم عن ابنه المعيد الذي اختفى فجأة، يؤكد أنه بلا نشاط سياسي، لكنه غاب..

بحث عنه فى عمله٠٠ فى السكن٠٠ حتى لدى أصدقائه القدامى ولا خبر، هدأت السرعة٠٠ وقفت السيارة٠٠ أحس أن الشاويش يجد فى البحث عن شئ ما بحيوية٠٠ مد ورقة٠٠ فسمع صوت براميل تتدحرج، وانطلقوا٠٠ كان حريصا على إحصاء البوابات٠٠ كانت بالتحديد أربعا، ثم لاحظ أن السرعة تباطأت، والطريق ينحدر رويدا رويدا، واستمر الانحدار فتوقع ألا نهاية له، أخيرا وقفوا٠٠ سمع صرير بوابة عملاقة تفتح، وأمسكه الشاويش برفق٠٠ سارا مسافة طويلة، ثم أوقفه وحل العصابة٠

- تفضل٠٠ هذا مكتب القائد٠

لما دخل الحجرة فوجئ بإضاءة كادت تذهب بصره، الجدران مطلية بالزيت الأصفر٠٠ ليس هناك سوى المكتب وبضعة مقاعد، وصورة لسيدنا أيام كان وجهه أحمر٠٠ يبدو أنها كانت قبل أن يبلغ الخمسين٠٠ قبل أن تشتد المعارضة وتتحالف٠٠ وقبل أن يتضامن أعضاء هيئة التدريس بالجامعة٠٠ أعلنوها صراحة، كانت صراحته فى أنصع حالاتها، إذ أمر نائبه أن يجتمع بهم٠٠ يسمعهم٠٠ ويتسلم منهم ما يريدون، يقال والله أعلم أن سيارات الشرطة حملتهم إلى أماكن غير معلومة٠٠ "هكذا قالت الإذاعات الأجنبية المغرضة ذات الأهداف المشبوهة"٠

بعد أن احتسى الشاى غريب الطعم، شرح للقائد خطته، الذى أوصى بدوره بضرورة الانتهاء من هذا الأمر سريعا، كيلا ينتشر الخبر

وتلتقطه آذان الرؤوس الكبيرة، رافقه الشاويش الذى ظل منتظرا بالخارج٠٠ البهو كان ضيقا، الضوء كابيا،٠٠ تأكد أن المكان كله تحت الأرض٠٠ فالرطوبة تزحف على كل شئ٠٠ صعد الدرجات الصعبة، وسط صمت قاتل لا تقطعه سوى دقات رجليهما٠٠ أوقفه الشاويش

- ها هى يا أستاذ

تأملها كانت بالطباشير٠٠ على جدران الزنزانة ٩٠٢ كانت كلمة " يسقط" مستقيمة أمّا " الملك" فمائلة إلى أسفل شيئا ما، يبدو أنها كتبت بسرعة٠٠ تأملها جيدا٠٠ حدق فى زوايا الحروف٠٠ أمر بمنضدة توضع جوار الحائط الذى يحمل جسم الجريمة٠

على الفور قرر أن يكتب كل المساجين نفس العبارة ثلاث مرات أفقيا أمامه٠٠ خرجوا صفر الوجوه٠٠ مرفوعى الرؤوس٠٠ اصطفوا فى سكون٠٠ كتب كل منهم٠٠ بينما جلس الخبير يتابعهم٠٠ يلاحظ حركاتهم٠٠ عيونهم٠٠ أصابعهم٠٠ فلربما ارتعش أحدهم أو ارتبك فيزيح هذا العبء عن صدره٠

كان من ينتهى من الكتابة يأخذه الشاويش إلى زنزانته٠٠ حتى فرغوا٠٠ ثم أعلن للقائد براءتهم جميعا٠٠ فصعق٠٠ ورفع صوته بألفاظ نابية، ثم سريعا اعتذر، وقال كمن تذكر شيئا:

- إذن فلم يتبق إلا الحراس٠

اصطفوا٠٠ كان الشاويش آخرهم٠٠ كتبوا نفس الجملة، كان كل منهم يمسك القلم بصعوبة٠٠ إذ أن أصابعهم غليظة٠٠ أعلن براعتهم الواحد تلو الآخر، ولمّا جاء دور الشاويش٠٠ لم يمسك بـــالقلم، أمـــام قائـــده وزملائه والخبير أخرج إصبع الطباشير من جيبه، وبثبات شديد كتـــب نفس الجملة على الحائط فوق الأولى وكانت كلمة " يسقط " مستقيمة أمّا " الملك " فمائلة شيئا ما

- تمت -

ثوار وفئران

(١)

قبل الموعد المحدد للحضور اجتمع الثوار، كانت قد سبقتهم شائعة أن خلافا حادا نشب بين الزعيم والرجل الثانى.. فـآثر كـل مـنهم السكوت التام، خشية أن تطـيح كلمـة واحـدة يتفـوه بهـا أحـدهم برأسه..كان كل من يدخل القاعة يأخذه الحنين لتلك الليلة التى أطاحوا بالملك فيها، ولم يكن ثمة فارق واضح بينهم وبين صورتهم الجماعيـة الكبيرة المعلقة على الحائط سوى حلـول الشـعر الأبـيض وانحنـاء أعمدتهم الفقرية، بل إن أحدهم سبح فى نوم عميـق عقـب جلوسـه مباشرة، وزاد من غربتهم عن المكان الذى لم يدخلوه طيلة ثلاثين عاما أن "السفرجى" لا يتكلم ولا ينبئ وجهه المشدود بشئ، فقط يسمع فيلبى كأنه زر يُضغط عليه.. ولفت الأنظار أحدهم بكثرة استئذانه لـدخول الحمام بين الفينة والأخرى.. يذكر له الجميع إلى اليوم دوره المهـم ليلة الثورة لمّا كان مكلّفا بتأمين المطار.

وفجأة تُسمع جلبة بالخارج، ويُفتح البـاب علـى مصـراعيه ليـدخل الزعيم.. مشدود القامة.. لم يغز الشعر الأبيض إطلاقا رأسه اللهـم إلا بقعة سوداء مكرمشة أسفل رقبته عزاها الجميع لكثرة عمليات شـد الوجه التى يجريها كل عام، تبعه بعد لحظات دخول الرجـل الثـانى، والذى لا تخفى على الجميع علاقته الوطيدة بالزعيم، حتى أن الـزعيم نفسه كثيرا ما يشيد به ويعترف له بجميله، فأثناء زيـارتهم للعاصـمة القديمة فى بواكير أيام الثورة وفى بداية الاحتفال المعد علـى شـرف الثوار ينقطع التيار فجأة.. ظن الجميع أنها محاولة لاصطياد الـزعيم الذى كان يزهو ويتبختر كديك رومى، إلا أن الحشد الهائل اندهش لمّا عاد التيار فجأة فوجدوا الرجل الثانى مرميا بجسمه كله على الـزعيم يحميه ويزود عنه، كانت هذه بداية علاقة لم تنفصم عراهـا إلا هـذه الأيام فقط، حينما بدأ يشعر بالملل لوجوده فى الظل.

بدأ الزعيم الحديث.. راح يعدد أفضاله وبالتالى اسـتحقاقه للزعامـة دون منازع، وذكرهم أنه صاحب التنظيم، وهو من اختـارهم واحـدا واحدا وبالتالى فالفضل يعود إليه وحده لا شريك له، ورغم ذلك فهـو على استعداد للتنازل عن السلطة للرجل الثانى بشرط قيامه بتوصـيل كرتونة فئران إلى أقصى الجنوب سليمة ورغم احترام زملائه لـه إلا أنهم لم يستطيعوا منع أنفسهم من الضحك بصوت عال، حتى أن أحدهم قام ضاحكا وراح يضرب كفا بكف حتى استلقى على قفاه وآخر نقلوه

إلى المستشفى الخاص بكبار رجال الدولة فى حالة سيئة لأن قلبه لم يحتمل قهقهات صاحبه.

(٢)

الطريق إلى الجنوب واسع ومزدوج، وضع الرجل الثانى الكرتونة بالمقعد الخلفى وسار بأقصى سرعته.. فالزعامة التى طالما حلم بها وكثيرا ما حرضته زوجته عليها لا يبعد عنها سوى ساعات، لا يريد أن يستريح.. أن يلتقط أنفاسه، حتى الاستراحات المنبثة على طول الطريق لم يتوقف عند واحدة منها، حتى فندق "الحصان الأسود" الذى كلما مر به لابد أن يبيت فيه، فعلاقته بصاحبته وثيقة قديمة مذ كان طالبا.

مر أيضا على القرية التى دُكت الصيف الماضى دكا إثر تطاول أحد أبنائها وتفكيره فى الإعداد لهجوم انتحارى على موكب الزعيم، يومها كم تمنى أن يفلح هذا الولد، ووصل إلى المكان المعلوم، أوقف السيارة وتلفت إلى الخلف، ويا لّلدهشة لمّا لم يجد إلا بقايا الكرتونة ولا آثر لفأر واحد.

(٣)

على نفس الطريق جلس الزعيم بنفسه يقود السيارة منتشيا، واضعا كرتونة جديدة بفئران أخرى على ركبتيه، كان الرجل الثانى بجواره مهزوما محسورا، أيضا ركب خلفهم أربعة من الثوار القدامى شهودا، أصر الزعيم أن يعلمهم فن الفنون، كان الزعيم كلما أحس بسكون

الفئران ضرب الكرتونة ضربة أو ضربتين فتُسمع ضجة الفئران، ثـم يتناول قطعة جبن من كيس بجانبه·· يضغط عليها لتنفذ مـن خـلال ثقوب الكرتونة إلى الفئران وتتابعت المتوالية هكذا·· سكون، فضربة، فضجة، ففتات من الجبن، ثم قائلا لهم وهو يلتفت هازئا:

- أرأيتم ؟!
- إلى أن وصلت السيارة والكرتونة بين يدى الـزعيم سـليمة بهـا الفئران تتقافز، هنا نظر إلى الرجل الثانى فـى ازدراء واسـتهتار قائلا

-أما أنت فلا زلت لا تعرف شيئا عن الفئران بعد ·

-تمت-

حكاية ضابط طويل القامة

نفدت صحف صباح هذا اليوم قبل التاسعة.. كل من بالمدينة يحمل نسخة وربما راح يتساءل عما قالته الطبعات الأخرى.. تجمعوا فى الشارع غير مصدقين.. لأول مرة يكتب اسم مدينتهم فى المانشيت.. بالأحمر.. يؤكد أحد الجالسين على مقهى "على بابا" فى فرح أنه سمع إذاعة لندن تذكر ما جرى بطريقة لائقة مناسبة.. يرد عليه ثان بألا يفرح هكذا فربما انتهت القضية وخرج منها الرجل كالشعرة من العجين كعادته، لكن المعلم يخرج عليه بصوته الضعيف – وهن بعد إجرائه جراحة قاسية فى 'إحدى كليتيه- يقول إن شاء الله يكون فيها حل للبرلمان

وقفوا جميعا إثر مرور سيارات للشرطة.. تصدر صوتها المعروف، خلفها هرولوا، إنها ساعة من ساعات العمر، إذ من يرى هذه المشاهد الممتعة ستحفر فى ذاكرته.. ستخلد.. وستحكى للأطفال.. أولى السيارات نزل منها رجلان، كانا بملابس مدنية، وخلفها نزل الجنود.. صعدا العمارة التى وضع عليها طبق فضائى كبير – يقسم سائق نشط

يعمل بين المدينة والعاصمة أنه لم ير نظيرا لهذا الطبق٠٠ أمرا بفتح شقتين متلاصقتين بالطابق الثانى عنوة، أوقفوا حراسة مشددة خاصة جوار الشمع الأحمر الذى أغلقوا به المعرض- المعرض المصرى العصرى للموبيليات والأنتيكات والتحف والهدايا- لا يزال الجميع يذكرون صاحبه منذ عشرين عاما فقط، ويترحمون على أمه وأبيه- الذين أتقنا صنع "البليلة" بالكشك الكائن خلف محطة الأتوبيس٠٠ ابنهما صعد نجمه فجأة فعقب إنهاء فترة تجنيده التى قضى منها سنة كبقية جند المحروسة٠٠ تلتها أربع سنوات عقوبة له إثر هروبه٠٠ بعدها سافر٠٠ أشاع أنه كان بالخليج، ولكن آخرين يؤكدون أنه بدأ بتجارة صغيرة فى بيروت٠٠ سرعان ما نمت وازدهرت٠٠ إلى أن حانت فرصة لم يدعها تمر فاهتبلها٠٠ وحقق منها ما حقق٠

والعمارة مع خمس أخر هى كل ما يملكه من عقارات اكتملت فى أشهر معدودة، اسمه أطلقه الناس عليها٠٠ بها اشتهر٠٠ خاصة أن مدخلها الذى اجتلب له رخاما من الواحات خصيصا- يعد تحفة معمارية٠٠ آية من آيات الفن الزخرفى – يقال والله أعلم أن مهندس المشروع- وكان آنذاك رئيس قسم الهندسة المعمارية بالجامعة- حصل منه فور إتمامها على سيارة هدية من تلك السيارات التى لا تظهر إلا فى مواكب التشريفة- بعدها أصبح ظله٠٠ سره وذراعه الأيمن٠٠ فى التحقيقات التى جرت معه بعد ذلك سألوه عن جواز سفره، وجدوا تأشيرات دخول وخروج من الباكستان ونيجيريا والمغرب٠٠ رحلات

مكوكية كان يقطعها سريعا.. هو الذى أشار عليه بفتح هذا المعرض.. طاوعه وأوكل إليه أمر المهمة.. يقسم سيد "النادل" بالطلاق أن المعرض لم يبع حجرة موبيليا واحدة.. لكن يتذكر أن رئيس مجلس المدينة لمّا زوج ابنه البكر نال ثلاثة غرف.. النوم والسفرة من الزان الخالص، أما الصالون فلا يزال عالقا بذهنه.. خاصة أرجله التى كانت على هيئة جذوع أشجار.. التحف والهدايا تفوق كل خيال.. عيّن فتيات ثلاث يلمعنها ويغيرن أماكنها كل أسبوع.

ولم يقدم منها سوى هدية لأمين الحزب الحاكم لما افتتح الكوبرى الذى يربط شرق المدينة بغربها، وعلى الملأ أعلن يومها أنه سيتكفل بنفقات الحملة الانتخابية فى عرض الإقليم وطوله.. صورته معه فى الحفل - وهما يبتسمان وخلفهما حشد هائل يصفق- علقت فى مدخل المعرض.. نفس الصورة لكن من زاوية أخرى علقت فى مكتبه بجوار صورة والده وهو يرتدى حلة رمادية وطربوشا مسكا بعصا أبنوسية.

خرج الرجلان.. وخلفهما يحملان أحرازا عدة.. ركبوا سياراتهم وانطلقوا.. لكن آلاف العيون تابعتهما حتى غابوا.. فى صيف العام الماضى كان الصدام المشهور فابن أخته ضرب الضابط لمّا فاجأهم فى حفلة شم، الحق أنه لما وصله النبأ اقتاد ابن أخته وذهب إلى المركز..

شتمه أمام المأمور، بل ولطمه على وجهه واعتذر للضابط، بعدها خرج وابن أخته تحت إبطه يتضاحكان.

لكن الضابط رصد سفرياته.. دس عامله فى المعرض، دست هى بدورها أجهزة تنصت.. قدم كل ما تحت يديه (يا بنى.. ابعد عن هذا الرجل ما زلت صغيرا).

يحكى أمين شرطة المرور النوبتجى أن سيارة صغيرة ذات ليلة فرت من أمامه هاربة، وخلفها شاحنة تطاردها.. أسرع راكبا دراجته وراءهما.. وبعد دقائق شاهد السيارة توشك أن تغرق.. أخرج منها الضابط مصابا بعدة رضوض وكدمات.. على دراجته حمله وأسعفه.

(يا بنى انقل مباحث السياحة أو الجمارك.. بلاش وش ووجع دماغ)

وفى يوم آخر سجلت قوة مطافئ أنه جاءها تليفون عقب الساعة الثالثة.. كانت النار قد التهمت أثاث شقته عن آخره.. الواقعة سجلت فى محضر ضد مجهول(لا تقل لى شيئا.. فأنت لم تسمع كلامى).

ولما عاد ابنه من المدرسة ولم تعد ابنته.. الطالبة بالصف الثانى الثانوى، لم يبحث عنها.. حمل المظروف الكبير مرفقا بخطاب استقالته، وذهب إليه، ولما اطلع على الأوراق والصور الملتقطة فى أماكن عدة، اتسعت عيناه.. قام من فوره وصافحه.. شد على يده بقوة.. بثقة.. وقال لا يزال يهز يده.

- عزيزى.. فلتقرأ ما سنكتبه صباح الغد.

- تمت -

ثورة الحمير الكبرى

انتشر الخبر سريعا، فما حدث لم تره عينا إنسان من قبـل، بـل يؤكد الصول "شعبان" حارس بوابة المركز أن ما حدث يحدث للمـرة الأولى فى تاريخ المدينة الهادئة، بل لم يجرؤ إنس ولا جان من قبـل على رفع عقيرته بتلك الصورة التى جرى بها ما جرى، حتـى كتبـة السجل المدنى الملاصق لمركز الشرطة - والمنتشرون على كورنيش المدينة، والذين يطنون صباح مساء بآيات من القرآن - أكـدوا أنهـا إحدى علامات الساعة.

لكن طلبة الجامعة لم يدعوا الفرصة تمر، فعلى الفور تجمع عدد غفير منهم، وراحوا يتساءلون عن سر ما حدث، وأين ذهب الحشد الهائل.

أما مصور الجريدة المحلية للمدينة فيعتبر الرابح الأول، وربما لم يربح أحد غيره، فعقب عودته من مدرسة ولده عقب توصيله إيـاه قاصـدا الجريدة عبر الكورنيش، أحس أن شيئا ما يحدث على البعد، إذ سرعان ما أخرج كاميرته من حقيبته الصغيرة، والمعلقة على كتفه أينما كان..

يقال أنه لمّا أحس بخطورة ما التقطه من صور واستحالة نشره اختفى عن العيون، لكن أين يذهب المسكين .

بيد أن الموقف الحازم الذى اتخذته إدارة المرور هو اللافت للنظر، فلما قصدت الحمير الطريق الرئيسى بين المدينة والعاصمة أسرعت قوة منهم فسبقوهم وأعدوا المتاريس، واستدعوا قوة أخرى من مركز الشرطة الذين أتوا مستعدين لضربهم بالعصى والهراوات الكهربائية، والتى سبق أن استعملوها فى العام الماضى ضد عمال مصنع الحرير عقب إضراب محدود قاموا به ولم يكتب له الفلاح.

(٢)

بعد جهد ومشقة عثر الطلبة على الحشد الهائل داخل مزرعة كلية الزراعة، الغريب أنهم وجدوا مساحة واسعة من الزهور والنباتات النادرة لم تمس، كثير منهم لمّا رأوا الحمير عيونها محمرة وخطامها الأبيض يسيل من أفواهها تراجع خائفا مذعورا وبالفعل قفز حمار أبيض كبير رافسا الهواء بقدميه متجها نحو الطلبة اللذين فروا بدورهم فاقترح بعضهم أن يذهبوا إلى المزرعة التى حطم الحمير أسوارها ، كان أول ما لفت أنظارهم اللوحة الرخامية الكبيرة التى علقت جوار الباب الحديدى الكبير

فى عهد ....

وبحضور السيد ....

قام وزير ....

بافتتاح مزرعة الحمير الكبرى
يومها تعجب الناس من المشروع وأصبح لا حديث لهم سواه، أخيـرا توصلوا إلى أن الوزارة أرادت منافسة تجار سوق السبت الذين رفعوا أسعار الحمير أضعافا مضاعفة،لكن آخرين اعترضوا، فلربمـا أرادت الدولة أن تكون المصدّر الأول للحمير فى العـالم، بعـد أن خسـرت خسارتها الفادحة فى سوق القطن العالمية وأصبحت تسـتورده بعـدما كانت تقايضه من قبل بما تحتاج من سلاح٠

لكن أكثر وجهات النظر تصديقا هى أن أحد الـوزراء أراد أن يـدخل سوق الاستثمار بمشروع لم يسبقه إليه أحد من قبل٠

دخل الطلبة المزرعة، فارتاعوا لما رأوا جدرانها٠٠ فكل حمار خلـع الحلقة الحديدية التى كان مشدودا إليها فبانت جدران المزرعة منقوبـة كأنها جدران مدينة أرهقتها الحروب، أكثر ما شد انتباههم أنهـم لـم يجدوا تبنا أو علفا أو برسيما أو حتى فولا، بل بدا المخـزن العمـلاق ممتلئا بآلاف من الأرغفة التى تطرحها أفران المدينة كل صباح، وحتى صنابير المياه اكتشفوا أنها صدئة لا تعمل، وان البراميل التى رصـت رصا مياهها سوداء تخيم عليها الطحالب والفطريات وورد النيـل٠٠ أيضا على الأرض لاحظ الطلبة دماء، فرجح بعضهم أنها ربما كانـت دماء العمال الثلاثة الذين شاع عنهم أنهم حاولوا منع خروج الحميـر فأشبعتهم رفسا حتى لفظوا أنفاسهم الأخيرة٠

(٣)

فوجئ سكان المدينة بصفارات حظر التجوال تدوى، الغريب أن الفئات المستثناة لم تكن كالعادة رجال الإعلام والأطباء، بـل فقـط رجـال الشرطة والأطباء البيطريين الذين وجهـت إلـيهم نـداءات عاجلـة تستدعيهم للحضور إلى مجلس المدينة الذى أتاه المحافظ على عجل فى سيارة عادية، حتى لم يرافقه أحد من حراسه.

(٤)

تناهت الأخبار إلى سمع أحد المراسلين الأجانب بالعاصمة فقرر التسلل إلى مركز الشرطة فى قلب المدينة والذى انتشر الهلع والفـزع بـين أفراده، رأى أن هناك أكياس الرمل قد رصت أمام البوابـة الرئيسـية واستطاع الوصول إلى الصول "شعبان" الحارس النوبتجى ساعة مرور المظاهرة الحاشدة، يقال والعهدة على المراسل أن الصول "شعبان" لـم يعجب لرؤية الحمير أول مرة فما أكثر الحمير فى مدينتنا !! لكـن أن تمر أمام المركز ساعة دخول المأمور فهذا لم يجرؤ أحد مـن البشـر على فعله.

أيضا مما رواه المراسل أن الصول لم ينكر فى التحقيقات التى جـرت معه على عجل أنه خر على قفاه ضاحكا فور رؤيته للحمير وهى ترفع عقيرتها بالنهيق.. يسقط المحافظ.. يسقط رئـيس المدينـة، وأكـد للمراسل بأن الهتاف كان صادرا عن أفواههم، ولم يكن صوت الطلبـة الذين اعتادوا ارتكاب مثل هذه الكبيرة التى لا غفران لها هنا فى هـذا القسم.

(٥)

فور إذاعة التقرير وسماع الناس له أصبحت المدينة محط أنظار جميع المراسلين الأجانب والصحفيين المعارضين، ولا يعرف أحد كيف استطاعوا التسلل إلى المدينة ومحاورة سكانها رغم حظر التجوال المفروض عليها، والملاحظ والمثير للسخط أن الصحفيين العاملين بمكاتب الصحف القومية الثلاث والصادرة كل صباح أغلقوا مكاتبهم، ولزموا منازلهم عقب سماعهم أنباء المظاهرة، بل زادوا على ذلك أنهم أغلقوا نوافذ بيوتهم لكيلا يقال عنهم بعد ذلك أنهم راحوا يتقصون الأخبار.

(٦)

حينما حل المساء كان الذعر قد تمكن من جنود الشركة خوفا من إشاعة مفادها أن الحمير عثرت على أحدهم غرب المدينة فأشبعته رفسا ثم ألقت بجثته فى النيل ولمّا سمع رئيس المدينة بأخبار هذا التهاون والتقصير اتصل بالعاصمة التى لم تنقطع الاتصالات الهاتفية بينها وبين المدينة منذ الساعات الأولى منذ الصباح، فأخبرهم بضرورة حضور كتائب من الحرس الجمهورى، أو على الأقل فصائل من الأمن المركزى لكيلا يلام بعد ذلك إن أفلت زمام الأمور من بين يديه.

(٧)

فى منتصف الليل سمع دوى انفجارات لم يكن يتخيل إنسان أن تسمع فى هذه المدينة، إذ فور ظهور الحمير مرة ثانية وخروجهم من مكمنهم وعبورهم الشارع الرئيسى حتى انهالت القنابل المسيلة للدموع عليهم تبعث بدخانها الكثيف حولهم ولكن الحمير لم تأبه له، بل واصلت الجرى والنهيق المرتفع، أحد السكان أكد أن عددهم يتجاوز الأربعمائة حمارا، راحوا يحثون الخطو نحو الكوبرى الذى يفصل شطرى المدينة، وهناك وقبل أن يعبره أولهم انهمرت الدانات عليهم من كل صوب وحدب، بعض الصحفيين أقسم بأن هذه الدانات لم يرها إلا فى الحروب التى شارك فيها، وبالفعل لم يتحمل الكوبرى - الذى كان آيلا للسقوط من قبل- فانهار قاطعا الطريق فحوصرت الحمير، وفى ذلك الوقت شوهدت سيارات ضخمة معبأة بالجنود تدخل المعركة، فانطلق الرصاص منها غزيرا يحصد الحمير حصدا، فسالت الدماء على الأرض، ولشدة غزارتها تكونت بحيرة دموية أبت أن تسيل نحو مجرى النيل.

الرجل الضئيل

لم يكن أمامه من بد سوى تنفيذ أمر زوجته فأنفه لا ينوى أن يكف عن الرشح كصنبور عطب، يحس أن البرد يتسلل حتى نخاع عظامه، فتحت الدولاب وأخرجت المعطف الصوفى العتيق، وبشدة نفضته فـــى الهواء مرتين، وبحنق لوحته ليسقط فوقه وهو ممدد فوق الكنبة الوحيدة بالبيت، كان حنقها هذه المرة لا حدود له٠٠ ففى ديسمبر من كل عـــام تظل تلح عليه، ولم تنس يوما أن تبدى اندهاشها لغباء رجلها هـــذا، إذ من يملك مثل هذا المعطف ولا يرتديه؟!

- لن تذهب إلى العمل بدونه، لن تبيت الليلة دون أن تذهب به إلى الخياط

كان لم يزل فوق الكنبة٠٠ أصغى إليها ولم يرد٠٠ بدا ضئيلا لدرجـــة أن أصغر أبنائه يبدو أطول منه٠٠ فقط تأمل صورتى أبيه وجده وهما يرتديان نفس المعطف٠٠ لم تكونا صورتين بالمعنى الشـــائع ، إنمـــا لوحتان صفراوان مغبرتان٠٠ حصل عليه جده حينما كان ضمن جيش إبراهيم باشا لفتح (أطنة) شمال بلاد الشـــام٠٠ اســـتراح الجنـــد فـــى

حلب•• هناك رآه معلقا فى حانوت نساج•• أغراه شكل المعطف وجودة نسيجه•• مد يده يتحسس الصوف ففغر فاه لمّا تأكد أنه نسج من خيط واحد وحيد•

- صنعه أحمد بن عبد الله أشهر نساجى الحجاز قاطبة•• عليك أن تتأكد من توقيعه داخل بطانته•

هكذا قال الحلبى وهو مشغول بنول بين يديه•

أومأ الجد أن نعم، وبلغت به الحسرة مداها لمّا أخبره الرجل أنه ليس للبيع ••لاحظ الحلبى مدى حزن الجد•• تأمله•• كانت تبدو عليه سيماء المهابة، وطيب خاطره بقوله أنه ربما يفكر فى الأمر إذا عادوا منتصرين من الشمال•

وفى طريق العودة أسرع إليه مبتهجا، وجده ينتظره كأنه واثق من عودته، استضافه ليلة فى بيته•• ألبسه إياه بيديه•• وجد عنتا ومشقة لأن الجد كان طويل القامة قوى البنية، ولم تكد تمر دقائق حتى أحس أن جسمه كله تشبع بالدفء•• توقع أن الرجل سيبيعه مقابل ثمن باهظ وكان مستعدا•• إلا أنه فوجئ بقوله

- هو لك ••• حافظ عليه

- أقسم الحلبى أن كثيرين أتوا إليه يطلبونه•• كان يدعهم يقيسونه•• يجربون حظهم فلعل أحدهم يملؤه•• ولكن هيهات•• كانوا أقزاما بداخله•• منهم وزير لدى الباب العالى•

عاد الجد ولم يكن ليدع المعطف طيلة فصل الشتاء .. وأيام أرغموه ليشترك فى حفر القناة ضربه جندى ضربا مبرحا وسلبه منه، ولكنه فى الفجر تسلل إلى خيمته وقيده ثم دفنه حيا وعاد إلى قريته بالمعطف الأصيل.

نظر الرجل الضئيل إلى صورة أبيه.. لم يكن يصلى إلا الفجر جماعة، مؤذنا وإماما فى الجامع الكبير، نال شهرة واسعة بالمعطف الذى لا يفارقه صيفا أو شتاء، وله صورة نادرة يوم ذهب به إلى الإسكندرية ليستقبل "سعد" حين عاد من المنفى.

اعتدل الرجل فاهتزت الكنبة الضعيفة من تحته، وقف واقترب من المرآة ونشر المعطف على جسمه فلامس الأرض، وعلى الفور قرر أن يخرج إلى الخياط. فى الطريق أحس أن يديه لا تقويان على حمل المعطف.. فكان يستريح على جانب الطريق كلما أرهق وتفصد منه العرق غزيرا، فرده الخياط على الطاولة، تأمله، راح يعيد النظر بإمعان، تارة إلى الرجل الضئيل وأخرى إلى المعطف، تأكد أنه من خامة تقاوم النار والماء والعث. عرض عليه أن يشتريه.. رفض بشدة. أخبره بأنه لن يجد ماكينة تستطيع أن تتعامل مع هذا الخيط.. كذبه وذهب إلى آخر.

- حتى لو ذهبت إلى العاصمة فلن تجد أحدا يقبله لكن لدى زبون محترم.. المأمور نفسه.. دائما يسأل عن معطف متين، ماذا قلت؟!

خرج، كانت السماء تنذر بمطر لا قبل له به٠٠ أسرع مكوما المعطف فوق رأسه٠٠ وعند المحطة بدأت زخات المطر غزيـرة٠٠ وقفـت سيارة شرطة ، نزل منها عدد من الجنود٠٠ ربما فـاق العشـرين٠٠ هكذا خمن ٠٠ أدخلوه السيارة ذات الصندوق٠٠ سحب أحـدهم منـه المعطف، وصعد إلى الكابينة٠٠ أذهله منظر الجنود بالسـيارة فـآثر الصمت٠٠ ألقوه بزنزانة انفرادية٠٠ ظل طوال الليل يسعل٠٠ وفـي الصباح فوجئ به الحارس ممدا لا يبدى حراكا٠

وحينما تسلمت زوجته جثته٠٠ تماسكت وحبست الدمع ولكنها انهارت وانتحبت لمّا سلموها متعلقاته ولم يكن المعطف من بينها٠

-تمت-

الكلب

(١)

أن أكون أول ضحاياه فهذا ما لم يقلقنى، لكن ما قض مضــجعى أنه كل يوم يصطاد فريسة٠٠ لم يفرق بين كبير وصغير، بين امــرأة وشيخ، حتى أن المستشفى المركزى أصبح كل يوم يستقبل معضوضا أو منهوشا بمخالبه الطويلة، أما الحقن التى تستخدم فــى مثــل هــذه الحالات فقد شحت وراج سوقها وصارت لا تتداول إلا سرا٠

الليل موعده وميدانه، ليلتها كانت الظلمة حالكة، ولما نبح لم أنشغل به، بل لم أفكر فيه مطلقا، إذ كثيرا ما تنبح الكلاب ليلا فى بلــدتنا، كتلــة سوداء متحركة تندفع نحوى٠٠ بعينيه المدورتين اللتين تقدحان شررا ، سد الطريق عليّ.. راح ينبح مبرزا أسنانه وأنيابه اللامعة٠٠ تراجعت خطوة٠٠ خطوتين، بينما تقدم هو بنباحه القصير المتواصــل، وفــى غمضة عين فررت من أمامه فلاحقنى ، درت وبحذائى ضربته، ولكم فزعت لما حشرت قدمى بــين فكيــه، أحســـت بأنيابــه مغروســة كالمسامير، جذبت رجلى فانطرحت أرضا، ثم قفز عاليا ونهش بمخالبه

جلدى والملابس، وفى فخذى عضنى فتدحرجت وصرخت·· حملونى والدم ينبجس من الجراح المشرشرة·· بعدها صار الرصاص أليفا لنا، ما أن يسمع الخفراء نباحا حتى يرد من بالشرق على من بالغرب، لذا فالمشي صار مخاطرة وأى مخاطرة، وأصبحت عادة أن يبيت أحدنا فى المدينة إن تأخر ليلا، والدكاكين قبل المغرب يتسلل أصحابها إلى بيوتهم، أما صلاة العشاء فلم يؤدها جماعة إلا الصناديد، وإن قرعت بابا فلن يفتح حتى لو لطمت الخد وشققت الجيب·

(٢)

والنار تأكل قلبها أقسمت أن تخلص البلدة منه، فشمرت عن ساعديها وأعدت ديوكا ثلاثة محشوة بالسم الزعاف، وكانت تنزع الريش بغلٍ

– لن أتركه حتى يعض ولدنا الثانى

ولفتهم فى ورق الصحف ثم وضعتهم فى كيس وناولتنى إياه، نبهتنى أن أباعد بين أماكن توزيعها·· ولكنها صباحا كانت تصرخ وتولول·· إذ فوجئنا بالكلب يمشى متبخترا ولا أثر للديوك الثلاثة·

ونحن فى طريقنا للمدينة كانت تلّح عليّ لنبيع الدار والأرض، ولنهاجر إلى بلاد الله الواسعة، ويكفى أن ولدنا ــ الراقد بالمستشفى ــ تجرى له جراحة عاجلة كى يلتئم جرح صدغه، وهناك اشترينا رغيفا واحدا ورصت هى بدقة بالغة خمسين إبرة فيه، ثم حشوناه بنصف كيلو من الكبدة المقلية بالبصل، ولما عدنا كانت رائحة الرغيف تفوح فى أرجاء الحافلة التى حملتنا إلى البلدة·

(٣)

صك أذنى صوته٠٠ فلم يكن نباحا٠٠ إنما عواء٠٠ قلما يصدر عـن كلب، لم تفاجئنى نبحة أخرى كصافرة قطار، أخرجت الناس من كـل صوب وحدب، كان الشارع مكتظا بعضهم خرج ومعهـم "الكلوبـات" التى علا وشيشها، أيضا لمحت النبابيت التى نادرا ما ترفع لكن مكانته لم يزل مجهولا ولولا نبحة موجوعة جعلتنا نقصد الجرن٠٠ اقتربنـا بحذر٠٠ ملقى على الأرض٠٠ هو عينه٠٠ الشعر الأسـود الكثيـف والفم الواسع الذى تصدر عنه أنات مكتومـة والأذنـان المرتخيتـان والعينان اللتان لا تقدحان شررا الآن، إنما تفتحان وتغلقان فى تتـابع، التففنا حوله، حاول الغفير مجاهد أن يضربه برصاصة فمنعته، أمـس فقط سمعوا نباحه قريبا من المقهى، ما إن أحسوا به يقترب حتى فروا جميعا إلاه اختبأ بركن ويده على الزناد ولما اقتـرب أكثـر خرجـت رصاصة فأخطأته، وقبل الفجر وقبل أن يدخل داره رآه يهجـم عليـه فمزق جلبابه والظهر، ولحسن حظه لم يعض، اختزل النباح فصار أنينا خافتا، بطنه بدأت تنقبض انقباضات متوالية والناس صـامتون، غيـر مصدقين، جسده كله أخذ يرتعش ارتعاشات سريعة وانقباضـة لبطنـه قوية اندفع على آثرها الدم من فمه ــ دم أحمر مزرق، مخالبه كانـت تنهش الأرض، وكشر عن أنيابه فى محـاولات مسـتميتة لاسـترداد عافيته، ظل يندفع الدم من الفم حتى خفت نباحه رويدا رويدا وسـكنت الارتعاشة وأُغمضت العينان وسقط الرأس

اللطمة

(١)

عشرة أرغفة أدور منذ الصباح باحثا عنها ، لليوم الرابع والمدينة كلها خالية من الخبز، فالمخبز الشرقى الذى كان يعد العيش " السـن" الأسمر أغلق أبوابه ، كتب عليه " مغلق للتحسينات" ورغم ذلك أصـر فقراء المدينة والفلاحون من قرى مجـاورة علـى الجلـوس جـوار حائطه.. لعل وعسى، حتى المخبز الغربى- الذى كان ينتج العـيش الفاخر- أغلق أبوابه وعلقت على نوافذه نفس اللافتة لكن مضافا إليها "والمالك الجديد يهنئكم بذكرى انتصارات أكتوبر" وبين الفينة والفينـة تقف سيارة .. يطل صاحبها برأسه فيقرأ اللافتة، ثم يتأسف برهـة، بعدها تزعق عجلات سيارته فى الأرض فارة، أمـا المخبـز الكـائن بوسط البلد- والذى نادرا ما حصلت على خبز منه، ذلك لأن طـابوره يعصرنى عصرا- فكان عماله يفترشون الأرض أمام بابه المغلق وقد ارتدوا نفس ملابسهم المرقعة، والموحدة اللون نظرا لالتصاق الـدقيق

بها التصاقا، اقتربت من أول جالس، واستفسرت منه هامسا، فأجـــابنى أيضا بهدوء

- يا أفندى نحن فى انتظار المالك الجديد.
- ترى من هو ؟!

فقال فى زهق ونفاذ صبر - الذى اشترى باقى أفران المدينـــة ويمكـــن بكرة يشترى شوارعها، واصل وكأنه يطلعنى على سر خطير

- سمعنا أننا لن نخبز غير "عيش الهامبرجر" قل والنبى يا افندى ما هو هذا الهامبرجر منذ الصباح ونحن نسأل عنه، يقولون أنه خبز باللحم والجبن والبيض.. هل هذا صحيح ؟!

لم أرد عليه وانسحبت عائدا إلى البيت، بعد أن فشلت مهمتى هذا الفشل الذريع، وضاع النهار كسابقه ولمّا فتحت الباب نهضت زوجتى وتحلق الأولاد حولى ولما رأتنى منكسرا طيبت خاطرى وأعدت المائدة سريعا وراحت تشد أزرى قائلة :

-غدا تتعدل الأحوال.. صبرك

وعلى مضض تقبلت منها العزاء

(٢)

فى ملل أشرت لأصغرهم ففتح التليفزيون يبدو أن سيل الإعلانات قـــد بدأ، صبرت حتى ظهرت المذيعة تعلن عن موعد المسلسل، وقبـــل أن تختفى لم تنس ابتسامتها العريضة، ثم فوجئت بإعلان خـــاص يـــزف البشرى لأهالى مدينتنا، كان المذيع بصوت واثق يرشد السكان فمنـــذ

الأسبوع القادم سينتج الفرن الشرقى خبز "الشاورما" وسينتج فرن وسط البلد خبز "الهامبرجر" أما الفرن الغربى فسيبيع الخبز العادى فئة الخمسة والعشرين قرشا وقبل أن ينتهى الإعلان ظهر آخر من كنت أتوقع أن أراه فى التليفزيون هو بعينه يعلن عن جوائز خاصة لمن سيشترى خبزا أكثر، وتفاصيل المسابقة فى صحف الغد.. صعقت وصرخت فهرولت أم العيال يا إلهى .. هل يعقل هذا صاحب أفران البلد كلها شخص واحد؟ ومن؟ النويرى زميل الدراسة !! يا قوة الله!! من يصدق ؟ الرجل الذى قضى أغلب سنوات عمره خلف الأسوار يعود فجأة يقفز هذه القفزة ؟! رحمتك يا رحمن !!

لكن هل نسى الناس قضيته الشهيرة، والتى عرفت أيامها بقضية الخردة.. إن القصة مشهورة يعلمها القاصى والدانى، فبعد انتهاء الحرب راح يجمع الخردة من سيناء سرا ويشحنها إلى مخازن استأجرها خصيصا فى قلب المدينة، وأفقنا ذات صباح على انفجار مروع أودى بحياة سكان عمارتين، وتصدع بنايات حى بأكمله، الصحف - حينها- أكدت أن البلدية هو من منحته ترخيص هذه المخازن وذهب بعضهم لأبعد من ذلك فأكدوا أن المخازن تابعة للبلدية وهكذا يكون رئيس البلدية شريكا له، لكن المجلس البلدى - الفائز بالتزكية لانسحاب المعارضة لأسباب لا داعى لذكرها الآن- هذا المجلس راح يؤكد ويثبت بالمستندات أن رئيس البلدية برئ براءة

الذئب من دم ابن يعقوب، وناشد فى بيان سكان المدينـــة ألا يســـمعوا للمغرضين من خلق الله٠

(٣)

جلست أفكر فيما كان

يومها كان الفصل ساكنا، ترمى الإبرة فيه ترن، ولا صوت يعلو فوق صوت المعلم، كنت أحبه " ثورتنا البيضاء أسبابها ستة –ثلاثة منها هدم والثلاثة الأخرى بناء" وفجأة يسكت ويسأل من يذكر لى هذه الأسباب؟ وقعت عينه على ماهر النويرى فوقف كفأر مذعوريتمتم، لم يفه بحرف واحد، كنت جواره، فقال لى المعلم هاشا باشا : قـــم أنـــت وخلصـــنا وصفق لى التلاميذ٠٠ إذ كان يحبنى، وقرر أن أقوم بلطم هذا البليـــد الغافل، هكذا قال، على وجهه، فواجهته، عيناى فى عينيه، ورفعت يدى وبرفق مسست على خده، فهاج المعلم وأقســـم إن لـــم ألطمـــه بشـــدة فسيلطمنى هو، واشرأبت الأعناق وزأر هو كأسد هصـــور، وتصـــبب منى العرق غزيرا وأخذت شهيقا وحبسته وضغطت بأسنانى على شفتى ورفعت يدى بينما راح هو يحدق فى ويهددنى وفى غمضة عين هويت على وجهه٠

وفى الصباح كنت أجلس على التختة وحدى، سأل المدرس عمن غاب فقلنا جميعا بصوت واحد : ماهر النويرى يا أستاذ٠

(٤)

فزعت لمّا وجدتنى فى الفجر أنهض وأحزم حقائبنـــا وأفـــك الأثـــاث وأخرجه إلى الصالة، قبل أن أنزل مسرعا نبهتها أن توقظ الأولاد كى يستعدوا للرحيل، فالسفر طويل شاق وأتيت بشاحنة وصعد معى السائق فوجدتها تبكى ويسح منها الدمع مدرارا فقلت لها وأنا أربت على كتفها

- هذا البلد لم يعد لنا فيه معاش ولا تنسى أن فى السماء ربا اســـمه الكريم.

- تمت-

الذئب والكلاب

(١)

من بعيد بدا حزينا٠٠ خلف القطيع كان يجر رجليه٠٠ يخط فـي الأرض بخيزرانته خطوطا لولبية، وكلبه الذى أخفق يتهـادى حولـه مرتخية أذناه٠٠ يتذكر عواءه أمـس وبسـملته وحوقلتـه واطمئنانـه لنفسه٠٠ إذ أنه ظن أن نبحة واحدة من كلبه ستردِه عنه، لكن الـذئب غافله اليوم وخطف كبشا كبيرا، وفر

(٢)

اشترى كلبا آخر٠٠ سار الأول أمام القطيع بينما كمـن الآخـر فـي المؤخرة، وما عاد الرجل يصفر ونسى عامدا نايه٠٠ لم تعـد تأتيـه ساعة تجلٍ فى العصارى فيرقص ويغنى، وفى مساء نفس اليوم عـاد مفجوعا يعتصر قلبه الحزن٠

(٣)

صباحا كان يرافقه عشرة من الكلاب·· أنيابها بارزة ونباحها عال·· ساق غنمه لنفس المكان فى ثقة·· وفى المساء عاد وهو يرقص أمـــام القطيع·· فما عاد أحد يسمع العواء ليلا·

(٤)

فى الصباح سحب نايه·· مشى متبخترا·· رافعا خيزرانتــه خلــف عنقه، وساعة القيلولة -كعادته الأولى- راح فى نوم عميق، ولما أفاق وكانت الكلاب مع الغنم تعدو واصل نومه قرير العين·· فى المســاء وقف أمام باب الحظيرة·· عد الغنم واحدة واحدة وقبل أن يحكم غلق الباب دخلت الكلاب·

(٥)

مع شروق الشمس شوهد يلطم خديه·· يشق جلبابه·· يولول·· يهيل التراب فوق رأسه·· تسابق الجميع إلى داره·· وحين أطلوا برؤوسهم داخل الحظيرة عرفوا كنه ما جرى·· فتراجعوا يمصمصون الشــفاه ويخبط كل منهم كفا بكف·

تمت

جدول الضرب

ولما كانت الليلة الثانية بعد الألف، قالت "شهر زاد" بلغنـى أيهـا الملك السعيد ذو الرأى الرشيد والعمر المديد أن ملكا ذو سطوة وجـاه حار فى مسألة حيرة ما بعدها حيرة، إذ أصبح لا ينام ليله ولا نهـاره، فاللغز صعب معقد، لا بداية له أو نهاية وأحيانا يهيأ إليه أنه وصل إلى حل ثم سرعان ما يكتشف أنه لم يبـرح البدايـة٠٠ هجـر طعامـه ونساءه٠٠ نسى شعبه ومملكته وعاش حياته كارهـا لهـا٠٠ ضـائقا بها٠٠ ساخطا عليها٠

لاحظ ذلك وزيره فدخل عليه يوما يحييه قائلا

- مولاى٠٠ أهمك شئ ؟ ٠٠ فداك رقبتى
- فقال الملك فى نفسه لما لا يفضى إليه، فهـو السياسـى المحنـك والحكيم الحاذق، وكم حل من الأمور الصعاب، هز رأسه ورسـم على وجهه ابتسامة وهش وبش لوزيره٠
- اضحك هكذا يا مولاى٠٠ اضحك كى تشرق الدنيا

قال الملك بتؤدة وأناة (وهو يشير بسبابته)

- اسمع أيهما كان فى المبتدأ ٠٠ البيضة أم الدجاجة ؟

ذهل ٠٠ اتسعت عيناه٠٠ فتح فمه٠٠ تصلب كأنـــه تمثـــال قُـدّ مـــن حجر٠٠ بما يجيب٠٠ عقله يكاد يفر٠٠ أخذ يذرع حجرة الملك ذهابا وإيابا، وُاضعا يده على رأسه٠٠ تحول تفكيره إلى العقاب المنتظر٠٠ فقد عود الملك على الاجابة السريعة متى سأله، ولما كـــان لا يـــزال يروح ويجئ، هب الملك فجأة ونهره فارتعدت فرائصه واصفر وجهه لما رأى الكف الغليظة تعلو، بعدها خرج الوزير كئيبا، واضـــعا يـــده على قفاه فيد الملك لم تكن أبدا هينة٠

- أسرع إلى قصره ومنع الناس من الدخول عليـــه، ولكـــن رئـــيس الشرطة ظل بالباب يلح، حتى سمح له الحاجـــب أخيـــرا فـــدخل مذعورا يقول

- سيدى٠٠ النجدة٠٠ شئ فظيع٠٠ بشع٠٠ لن يقدر عليه سواك

- اسكت يا ملعون (قالها الوزير بهدوء، وهو ينظر إلى السقف)

- مالك سيدى الوزير٠٠ مرنى تجدنى رهن إشارتك

- اسمع٠٠ بدون مقدمات٠٠ أيهما كان فى المبتدأ البيضة أم الدجاجة

ولم يتركه الوزير يذهل أو يضرب كفا بكف، ولكن أمـــره أن يعطيـــه قفاه، وإن وجد حلا بعد فليأته، المهم الآن أن ينحنى ، وانحنى

خرج قائد الشرطة والدم يغلى فى عروقه٠٠ مشى فى شوارع المدينة لا يعى شيئا، يسائل نفسه ذات السؤال ولما وصل بيته كـــان العمـــدة بانتظاره٠٠ حاملا من بلده فواكه

-مرحبا بحامى حمى البلاد، وراعى مصالح العباد

اسكت يا ملعون (قالها القائد بهدوء وهو ينظر إلى السقف)

- مالك سيدى ٠٠ مرنى تجدنى رهن إشارتك
- أخذ قائد الشرطة شهيقا طويلا، وفاجأ العمدة قائلا
- هل تعرف من كان أولا البيضة أم الدجاجة ؟
- ٠٠٠٠٠٠ (صمت وذهول على وجه العمدة)

هنا نهض قائد الشرطة، وإن هى إلا لحظات حتى خرج العمدة مهرولا ويده على قفاه الذى تورم٠

كان فى طريقه يتميز من الغيظ، لو صادفه كائن من كان لفتك به، ومن بعيد رآه فنزل من فوق حماره احتراما له٠

- قل لى يل جعفر أيهما كان فى المبتدأ البيضة أم الدجاجة ؟
- نعم ؟ ماذا تقول يا حضرة العمدة٠

وظل يضحك حتى أفاق بضربة على قفاه طرحته أرضا، بعدها أخذ يتلفت يمنة ويسرة، وعيناه تقدح شررا، وراح يهذى بكلمات غير مفهومة، حتى وقعت عيناه على حماره، هنا هب مستأسدا ممسكا بعصاه ٠٠ مشمرا عن ساعديه و ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠

وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام النباح٠

- تمت -

الرجل ذو الوجه المكتنز

وحده فى الشارع يمرح وينط.. يكتشف لعبة جديدة يبهــر بهــا أقرانه ، بها يتحداهم.. على بعد من الحائط الذى لصقت عليه صــور كثيرة وملونة لرجل ذو وجه مكتنز- يقف ، قدماه ثابتتان فى خفة .. أمسك بالكرة وطوحها فى الهواء ثم انتظرها برأسه ، ظل يعدّ كم مرة ترتد الكرة بين رأسه والحائط فى بديع تتابع ، والولد الرشيق لا يمــلّ حتى سقطت حبة عرق فى عينيه، و"بفانلته" الذى ذهب عنهــا لونهــا دعكها ، وبساعده مسحها ، نادت عليه فلبى مسرعا .. نظر إليها من خلال ضباب عينيه .. كان الباب مواربا والصوت خفيضا - املأ هذه الصفيحة بالجاز ، وبكرة تعالى خد لك ربع جنيه.

وضع الفانلة فى السروال ، وطبق على الجنيهات الثلاثة بحرص بالغ ، وبالأخرى أمسك بالصفيحة الفارغة ، أسرع فرحا يطوحها إلى الأمام ثم إلى الخلف .. يفكر كيف نادته ؟! إذ أنها للنــاس لا تبــين .. لا تخرج .. زوجها الصول - الربعة - ذو الصوت الجهورى غالبا ما يبتاع لها الصغيرة والكبيرة .. حتى أن أهل الحارة تأكدوا أنها بمجرد

نظرة منه أو كحة تعرف ما يريد .. عاد والصفيحة تشد ذراعه إلـى أسفل حتى كلّت كفه والساعد .. ابتلت بالجـاز يـده والسـروال .. فاحت الرائحة .. حط الصفيحة .. أراح الذراع والنفس ، ولما قرع الباب واربته ، وذكّرته بألا ينسى صباح الغد .. تناول الكرة وانطلق إليهم ، لم يلعب مع من ارتدوا " الفانلات " التى وُزعـت بالمجـان ، وعليها صورة ذى الوجه المكتنز ، ولما أذن المغرب وانصرفوا جلس على سلم المسجد الرخامى .. سرت برودة. إليه ، وفكر مليـا فيمـا سيشتريه صباحا .. فضل البسكويت الذى يظهر فـى الاعلانـات.. سيجمع الأغلفة وسيرسلها وسيطلب من أمه أن تدعو لـه ، فـدعاؤها مجاب إذ دائما تقول أن دعوتهـا لـيس بينهـا وبـين الله حجـاب ، وسيرسلون إليه سيارة فخمة لاسـتلام الجـائزة .. آه لـو الدراجـة البخارية التى لم ير لها نظيرا فى الحارة ، أو التليفزيون الملون .. أو الخمسة جنيهات الذهبية .. لحظتها سيبتاع ملابس كثيـرة "وفانلـة " يلعب بها لم تطبع عليها صورة ذى الوجه المكتنز ،ولمـا أوى إلـى سريره سمع أمه تغط فى نومها .. اقترب منها حابسا أنفاسه، قبلّهـا على الخد، وأحكم الغطاء عليها، وقرر أن يعطيها الجائزة فهى التـى دعت وألحت فى الدعاء حتى اخترق الفضاء كالبرق .

... قبل أن تشرق الشمس خرج، وفى يمينه حقيبـة كتبـه القمـاش قاصدا الباب ذاته.. دق برفق فلم يخرج أحد، كرر الدق، فسمع سـبا وحركة وصوت الصول يقترب.. ثم فتح الباب فجـأة وأطـل وجـه

مكتنز لرجل ربعة يسد الباب.. تأمله.. من قبل كان وجهه نحيفا.. حدق فيه، كانت نفس ملامح الرجل الذى عُلّقت صوره على الحوائط فى كل مكان، توحد الوجهان فصارا واحدا، فرك عينيه ولم ينطق، ذهل لما هبّ فيه الرجل، إذ سمع صوت الصول الذى به اُشتهر، تراجع محدقا فيه بشدة.. ظل ينسحب بظهره خطوات، وفى لحظة اعتدل وأطلق ساقيه تسابقان الريح

تمت

الرسالة

(١)

بهت الحارس الذى لم يذق طوال ليله طرفا من النوم حينما رأى من بعيد شبحا يخرج من باب القصر، انتظر حتى اقتـــرب فوضـــحت ملامحه، إذ لم يكن سوى الحكيم " ايبوور" متلفعـــا بعباءتـــه الســـوداء الموشاة بالقصب، ترى ماذا أخرجه فى هذا الوقت مـــن الليـــل؟ مـــن المؤكد أن الملك كلفه بأمر هام وسرعان ما ســـيعود، لكـــن الحـــارس فوجئ به يعرج عليه.

- ولدى.. تلك رسالة أحملك اياها.

وأخرج من طيّات ملابسه لفافة كبيرة، تسلمها الحارس مذعورا فهو لم يكلف فى هذا القصر الكبير – قصر فرعون – إلا بحراسة هذه البوابة الكبيرة ولكن الحكيم ايبوور لم يدع له فرصة للتفكير فعاجله قائلا

- فلتصعد بها الآن فورا إلى جناح الملك

ولما اندهش عقب معنفا – هل فهمت؟!

لم يكن الحارس ليستطيع رفض أمر موجه إليه من الحكيم ولكن زادت حيرته لما فكر سائلا نفسه

- ولم لم يسلمها الحكيم بنفسه إلى الملك

هنا دعا آمون أن يشمله بعنايته.

(٢)

لم يكد يشرق ضوء الشمس حتى كان قرار الملك العاجل علـــى كـــل لسان فى المدينة، إذ أنه قرر ضرورة البحث والعثور علـــى الحكـــيم الملعون حيا كان أم ميتا، وإن كان يفضل أن يؤتى به مكبلا بالأغلال، وعليه انتشر الجند فى جميع أحياء وضواحى العاصمة، غير مصدقين أن الأمور وصلت إلى هذه الدرجة من السوء بين الملك والحكيم، وهو من هو بالنسبة إلى الملك، ولم تزل صورة أسرة الحكيم - وهى تدخل القصر - عالقة بأذهانهم، فيومها قرر الملك أن تقـــيم الأســـرة بجنـــاح خاص فى قصره وذلك كى ما يكون الحكيم تحت طلبه متى شـــاء، إذاً ترى ماذا فعل ، وأى جرم جناه ؟!

(٣)

بمساعدة قائد الجيش وضع قائد الشرطة خطة للبحث والتحرى، بعدما أتته الأنباء الأولية بفشل الجند فشلا ذريعا فى مهمتهم، فلم يعد أى منهم بخبر عن أى الطرق سلكها الحكيم فى هروبه، أما تفاصـــيل الخطـــة الجديدة، فقد رسمت بحيث لا تترك شبرا يمكن ألا يمـــر بـــه الجنـــد، فركبت فرقة منهم النهر شمالا، وأخرى جنوبا، فضلا عن أربع فـــرق

أخرى اثنتان منهما اتجهتا على ضفتى النهر شمالا، وسارت الأخرتان جنوبا، فى نفس الحين الذى توزعت فيه آلاف من العيون فى المدن والقرى والدساكر والعزب، حتى النجوع بحثا عن ذلك الملعون.

وتعجب الناس لهذه الحركة التى لم يروا مثلها قط، وراحوا يتساءلون أين كان كل هؤلاء بأسلحتهم عندما داهمنا الأعداء من الشرق واحتلوا أخصب أقاليمنا وأينعها، ولم يفت قائد الشرطة أن يحقق بنفسه مع تلامذة الحكيم واحدا إثر واحد، فلعل أحدهم يزل بكلمة تكون طوق النجاة له أمام الملك الذى راح يسأل كل ساعة عن آخر الأخبار.

أما هؤلاء التلاميذ فقد عرفوا أخيرا سر الهمّ والحزن الذين خيما على وجه الحكيم فى أيامه الأخيرة، وبالفعل ففى السقيفة التى أقاموها على ضفاف النيل – كانت إجاباته مختصرة، ودروسه مقتضبة، وملامحه متألمة موجوعة

ولم يدع قائد الشرطة أى فن من فنون التحقيق معهم.. استخدم الوعد والوعيد، إلا أن أحدا منهم لم يتكلم.. بل لم يفه.. إلا بالآهات والأنات، وأخيرا وبعد أن بلغ من اليأس كل مبلغ أمر بإيداعهم السجن الأرضى المفضى إلى النيل

(٤)

طرق الوزير باب مخدع ولى العهد.. إذ ما كان أحد ليجرؤ على طرق الباب.. فالجميع يعلمون قدر العقوبة التى تلحق بمن يرتكب مثل هذا الجرم الخطير، وحده الوزير الذى فعلها، ليخبره بأمر ما

جرى.. هنا كان على ولى العهد أن يترك عشيقته التى لا تفارقه ليلا أو نهارا حيرى لا تدرى شيئا، وسأل الوزير

-هل قرأت الرسالة

-أجابه بأنفاس سريعة متلاحقة- لا فالرسالة لم تزل بيد الملك

-إذاً فلتدخل إلى جلالته، ولتحتل عليه بأى حيلة، كى تعرف ماذا كتب هذا الحكيم المأفون

- أخشى يا سيدى أن يكون قد فعلها وذكرنا فى رسالته
- لا أظن فالرجل لم تكن تشغله سوى دروس سقيفته، هيــا.. هيــا امض أيها الجبان

فى جناحه الملكى كان جلالته لم يزل ممسكا برسالة صديقه الصــدوق وخله الوفى، كانت مكتوبة بنفس خطه المنمنم المنمق، هذا الخط الذى يعرفه منذ زمن بعيد، منذ كانا يتلقيان العلم فى معبد آمون

ومنذ الصباح والطبيب ملازم له – فقد زادت حالته الصحية سوءا على سوء، إذ اصفر وجهه وزاد السواد حول عينيه وامتنــع عــن الكــلام وراحت أنفاسه تتسارع فى حشرجة مسموعة، ولما دخل الوزير يؤدى مراسم التحية اليومية، رمى بالرسالة إليه مشمئزا، فــانحنى يلتقطهــا، وأسرع يفضها ملقيا نظرة عليها وأخرى على الملك العابس فى تتــابع منتظم إلى أن أتمها وعاود قراءتها ثانية ليتأكد بأن الحكيم لم يشر إليه بإشارة

(الفوضى ضاربة فى طول البلاد وعرضها

وأصبح غذاؤك تلك الأكاذيب التى تتلى عليك.

وتركت البلاد كالقش الملتهب

فالأخلاق منحلة.

فليتك تذوق بعض هذا البؤس بنفسك.

انظر

لقد أصبحت الحياة مُرّة حتى عافها الناس

رخيصة حتى هانت عليهم.

يقول الكبير: يا ليتنى مت قبل هذا.

ويقول الصغير: ليت أمى لم تلدنى)

ولكن الوزير فوجئ بالطبيب يلقى بالملاءة البيضاء على وجه الملك..

هنا جرى فرحا يزف البشرى إلى ولى العهد.

- تمت -

وقائع جنازة مولانا عز الدين

كان فى سريره لم يزل، نظر إلى الشباك يحملق فى السحب المحمرة الكثيفة التى غطت السماء فى هذا الصباح وارتدى كامل زيه، وخرج دون أن يحتسى طواسى الشاى بالنعناع، لمّ خفراءه وأمرهم بكل ما يريد وقبل أن ينصرفوا وزع عليهم عصيا جديدة وغليظة وزيا أشبه بزى عساكر المركز، زرعهم فى الطرق الرئيسية ، كرر تنبيهه بألا يزعجوه بمن يخالف أوامره، فلهم حرية التصرف.

قصد بيت مولانا عز الدين غير مصدق أنه مات بالفعل فمنذ وعى الدنيا والشيخ يملأ الدنيا بفتاويه، وبأحاديثه وزواره، ولمّا اقترب من البيت وجد كل شئ كما توقعه، احتشد الناس منذ الصباح، بعضهم ينظر إليه شذرا- البقاء لله ياحضرات، لم يردوا.. منهم من لزم البيت فور أن نعى الشيخ الناعى، حتى القطن تركوه على شجره ولم يستكملوا جنيه، النعش الخشبى الأخضر راقد بجوار الباب ينتظر خروجهم بالجثمان، لم يفاجأ بغياب النسوة، بحكم سنه لم ير زوجة الشيخ، لا يعلم إن كان تزوج أم لا، وإن كان العالمون ببواطن الأمور

قالوا أنه تزوج شهرا واحدا ثم طلقها كي يلحق بعسكر أحمد عرابي في كفر الدوار، تعمد بعضهم أن يسد الطريق عليه، يمنعه من دخول الحجرة، إذ يعلمون أنه لم يزره بعد أن تمكن المرض منه، دفعهم ثم فتح الباب بقوة ودخل الحجرة معبأة برائحة المسك والبخور، على الحائط قفطانه وعمامته وعصاه، تلك التي قيل عنها أنه قتل بها عشرة من جنود "بونابرته" لمّا ضلوا الطريق يوما، الجثمان كان بالكفن ملفوفا، أطل على الوجه الذي كان بلون الحليب، اللحية التي لم ير نظيرا لها، قبله في جبينه، لكنه فوجئ بمن يناديه، خرج فوجده أحد خفرائه، كان يتصبب عرقا، يخبره بأن سيارات ضخمة وغريبة دخلت البلدة ووقفت في الساحة، وأحدهم طلبه شخصيا.

سيارات ثلاث، تكتظ اثنتان منها بالجنود، والثالثة قبع بها رائد ذو وجه نحيف، التف جمهرة من الناس حولهم.. نفس الساحة التي شهدت علقة سخنة نالها الشيخ أيام الإنكليز أنذروه إن استقبل سعد زغلول لكن هل يقدر أحد على رده؟ فور خروجه مشيعا بالهتاف الذي تقشعر له الأبدان، هجموا على الدار.. دمروا المكتبة.. مزقوا الكتب.. وداست جيادهم عليها، وجروه حيث هذا المكان الواسع، وأمام الجميع خلعوا عنه ملابسه، حكى له أبوه أن يد الضابط الذي كان يضربه شلت من فوره.

قال وهو يخلع " الكاب " نحن لا نكرم إلا من حصلوا على "تجمة سيناء" ولا يزال الناس يتداولون ما جرى، فبعد صيف العام السابع

والستين أحجم الشيخ عن صعود المنبر ·· عن إلقاء الدروس، حتى عن صعود المئذنة، واعتكف بالمسجد ·· أصيب بهم وغم لا حدود لهما، ثم شوهد ذات صباح مبتسما، ويطلب من الحلاق أن يشذب اللحية، وارتدى أفخم ما لديه قاصدا قصر الرئيس يبشره، إذ رأى الرسول وكوكبة من الفرسان يقطعون أرض سيناء إلى الشرق، أصر على الالتحاق بالجبهة فأذن له، صورته وهو يتسلم النجمة نشرت بالصحف ·· حفرت فى أذهان الناس، وإلى اليوم يحتفظون بها تحت مراتبهم ·

من جيبه الأيسر أخرج الضابط ورقة وأطلع العمدة عليها، فإذا به يقول مستنكرا

- كيف تأخذون الجثمان وقد حفرنا له قبرا هنا ·· فى بلده ·
- إذاً فوقّع لى بالرفض (قالها محتدا متضايقا)

اصفر وجه العمدة وامتقع ·· هرب دمه ·· انتشر الخبر ·· تقدم الجنود إلى البيت، ذهل الناس ففرقوهم بالعصى وأطلقوا الرصاص فى الهواء، دخلوا البيت فالحجرة، فحملوه فى كفنه، وضعوه فى تابوت كان برفقتهم، ساروا به مسرعين حتى سياراتهم، وخلفهم الحشد الهائل، ولما وصلوا الساحة وهموا برفعه إلى صندوق السيارة الأولى فوجئوا بجثمان الشيخ يوقفهم ·· صرخ فيهم الرائد، لكن إلى الأرض نزل بهم الشيخ وتسمر ·· حاول الجنود ·· انفجر فيهم القائد ·· ضربهم، والشيخ بالتابوت يتحرك ·· يزحف ·· ويسرع ·· هلل الناس

وكبروا·· ذعر الجنود·· انفتحت أفواههم·· منهم من سقط مغشــيا عليه·· كان الشيخ قد تجاوز الساحة·· تقــدم واختــرق الزراعــات وحده·· حلقت فوقه أسراب من الطيور لم يعهدها الناس قبل اليوم·· صغيرة وكبيرة، أنواعها مختلفة وريشها ملــون·· تصــفّر وتصــيح وتزغرد إلى أن اختفت عن العيون·

- تمت -

الحصان

مالت الشمس، ولا يزال هو للمرة العشرين يجر أطنان الأسمنت، صهيله كان مختلطا بدقات حوافره على الأسفلت٠٠ بصوت الأجراس المعلقة حول رقبته٠٠ بأنين العربة الخشبية التى تكاد تتفسخ، ولما كان الطريق طويلا بين المستودع والبناية الجديدة، تساقط من جانب فمـــه سيل أبيض من الرغاوى، يكاد يكتب على الأسفلت "طلب استرحام"

صاح ذو الشارب المفتول صيحة كبرى، ووقف فـوق العربـــة وراح يسب الحصان، ويهز "الكرباج" فى الهواء٠٠ ينـــذره إن وهـــن٠٠ إن تباطأ٠٠ ولكنه من آذان العصر وهن فتباطأ٠٠ منذ صهل ولم يفهم أنه ظمآن٠٠ منذ نسى "خُرج" العلف ولا يدرى فى أى ركن رمى به، ولما وصلا كان ينهج وبطنه تصعد وتهبط وقد نفرت عروقها وفى دقـــائق رص الشكائر ونط فوق العربة ممسكا باللجام، وأخذ يهزه ويصيح كى يسرع٠٠ لكن الحصان الأحمر – ذا الغرة البيضاء- والذيل الطويـــل والحوافر الخديدية وقف وكأنما بـــالأرض تســـمر٠٠ زعـــق الرجـــل وتطايرت لعناته فى الهواء مع رزاز فمه الواسع فلـــم يتحـــرك، هـــز

الكرباج ونزل به فوق الظهر فلم يهتز ٠٠ ضربه بقبضة يده على كفله فلم يتزحزح٠٠ أسرع ونزل ولكمه فى خطمه فأشاح برأسه عاليا فقط٠ صباحا وقبل أن يخرج قدم إليه العجوز تبنه وعلفه- كان ولده ذو الشارب المفتول لم يزل صوت شخيره يعلو ٠٠ ظل يلف ويدور حول الحصان٠٠ يتأمله، يمعن فيه النظر ٠٠ يمسح فوق رقبته ثم داعبه، وملأ كفيه سكرا وقدمه إليه مبتسما ولما صهل أسرع فأتى "بطست" الماء إذ يعرف مطالبه من درجات صوته٠٠ إنها رفقة عمر،ولم يقعده عنه سوى المرض الشديد، ثم أتى بالمشط وراح يسرح له ذيله الطويل٠٠ ويخبط على كفله خبطات حانية، ولما صحا ابنه ذو الشارب المفتول والكرش الضخم علقه فى "عريشه"٠٠ كان وجهه لم يزل متورما ،عينه محمرة والجو رغم الصباح مكتوم حار٠

لاحظ أن الناس تجمعوا حولهما وتشنج ذو الشارب المفتول فنزل بالسياط السريعة المتلاحقة على ظهره ولكن الحصان لا يسير، طلبوا منه أن يرحمه ويتركه للغد، وكأنما طعنوه فى فروسيته إذ قفز ووقف فوق العربة وخلع صدرته فبان شعر صدره وظهر للناس، وكذا عضلات ذراعيه القويتين٠٠ جلده كان منقوشا ببثور حمراء، أما فقرات ظهره العليا فمسودة من كثرة ما حمل، بدا مسخا من صور الفراعين التى ظهرت على جدران المعابد والمقابر وهم يلهبون ظهور الخيول التى تجر عرباتهم الملكية٠

أمسك بالكرباج واحمرت عيناه والناس يستعطفونه٠٠ تشنج وهو يهبط به على ظهره٠٠ كان يضرب فى مكان واحد حتى يلسع ولكن الحصان أبى٠٠ قدماه ثابتتان وكأن الضربات السريعة القوية المتلاحقة على ظهر غير ظهره، لم تصدر عنه حركة أو لفتة، فقط رفع رأسه بغرته البيضاء حتى تعب وملّ فجلس على العربة ينهج، وإن هى إلا لحظة ٠٠ برهة، حتى تحرك الحصان منطلقا كسهم٠٠ مخترقا الجمهور الغفير فانقلب الرجل فوق العربة مثيرا ضحك الناس وسخريتهم، فنهض يشد اللجام، ويسب ويلعن ويضرب ولكن الحصان كأسد خرج من قفصه، كان يضرب الأسفلت بقوائمه القوية ويجرى، والناس يصرخون ويضحكون، بينما أطل آخرون من النوافذ والشرفات يرقبون ما يجرى٠٠ سائقو السيارات مالوا عن الطريق، أصحاب المحلات خرجوا واصطفوا على الجانبين، وأخذ يدور فى الطريق الدائرى حول المدينة والرجل المذعور كف عن الضرب، يعود ثانية يخترق الحشود المذهولة والرجل ذو الشارب المفتول والكرش الضخم يبكى ويستغيث، حتى لحقت بهما سيارات الشرطة٠٠ أطلقوا الرصاص فى الهواء، والحصان يمد ساقيه يضرب بهما الأرض ويسرع، رفعوا صوت صافراتهم والحصان المقتدر تزيد سرعته ويرفع رقبته لأعلى فيسمع صوت أجراسه جليا، ظل الموكب يخترق المدينة ويدور حولها وكلما اقترب من الحشود تزيد سرعته، حتى سبقته شاحنة شرطة بها خمسة من الجنود وضابط ممسكا بجهاز لاسلكى، والحصان لا يلوى

على شئ كأنه يطير، قوائمه تلامس الأسفلت فلا تُرى، حتى لحقت به الشاحنة الثانية وحاذته، والرجل العارى الصدر والبطن يمسك اللجام بيد ويستنجد بالأخرى، أبطأت السيارة الأولى واقتربت منه الثانية فانسحب هو عن الطَريق متعمدا أن يصدم عريش العربة بجذع شجرة ضخم.. فتكسرت العربة، وشوهد الرجل يتدحرج فى دمه حتى سقط فى الترعة بينما وقف الحصان يتصبب عرقا ويرفع رأسه فلا يسمع سوى صوت الأجراس.

-تمت-

القارب الذى غاص

للمرة الثانية – وربما العاشرة– يقرر جدى إخراج القارب من الماء، أقسم أن يرممه هذه المرة بحيث تكون الأخيرة، سمعته ينادى علىّ فأسرعت إليه، وجدته يخلع جلبابه فبان بسرواله وفانلته أطول وأنحف مما كان لكنه بطوله الفارع وصدره العريض ذى الشعر الأبيض وعضلاته التى لم تترهل بعد يوحى بفتوة فى زمن مضى، غير أن رقبته هى التى شذت عن استقامة بنيانه، إذ بدت منحنية مقوسة وإن كان مرد ذلك انكبابه الدائم على المجدافين.

دس أمامى شاله ومحفظته وسجائره فى الجلباب ثم مد يده إلى قائلا

- اصعد به فوق شجرة التوت.. تلك التى تفرش الجسر بظلها الظليل.

راح ينادى بصوت عال على الصيادين.. كل باسمه.. إلى أن ظهروا فى النهر متبرمين.. تجمعوا حوله.. رفعوا القارب إلى أعلى تحت التوتة لكنهم انصرفوا عابثين، إذ أن هذه ليست المرة الأولى التى يساعدونه فى إخراج هذا القارب اللعين.. نصحوه بأن يشترى آخر

قرقعتي، عرضوا عليه أن يختار أحسن قواربهم ويناصف صاحبه لكنه أبى بشمم.

..بعد أن جهز الغراء وفرد ألواح الخشب وأشعل النار تحت صفيح القار، أمسك بقادومه وراحت دقاته تتوالى وتتابع محدثة دويا يسمع الناس صداه فى القرية، ولما حميت الشمس تباعدت دقاته فآثر الراحة قليلا ونزل إلى الماء يشرب، رأيته -وكنت لم أزل فوق التوتة- يغسل يديه ويفركها ويملأ كفيه من النيل ويشرب.. شرب كثيرا، ثم وهو يصعد إلى أعلى ثانية نادى علىّ أن أتيه بالسجائر، نزلت ومددتها إليه لكننى وجدته يقعد متخذا وضع القرفصاء، وقد راح ببصره ساهما ناحية النيل.. كأنه يكلمه.. يرجوه أن يترفق به وبقاربه الصغير الذى يطعم عائلة كبيرة من أبناء وحفدة، ولما شاهدت عيونه تغرورق بالدموع قلت له مواسيا

- ياجدى.. بكره تتعدل الأحوال

وكأنه فوجئ بى فأفاق من شروده وابتسم، ومسح بيديه فوق شعرى وقبلنى ولكن عينيه تكادان تطفران بالدمع، ثم فجأة هب واقفا وعادت دقاته السريعة القوية تنبئ عن عزم لا يلين وقوة لا تفتر ولم يهدأ إلا بعد أن تأكد من متانة قاربه، أخيرا أمسك بالفرشاة العريضة.. يغمسها فى صفيحة القار ويلوك بها بطن القارب كى لا تتسرب المياه إليه ثانية.

وبعد أن أنهى مهمته وقف يتأمل الطريق٠٠ من يعينه على حمل هــذا القارب إلى أسفل، ما من قدم تدب فوق الجسر، وضع كفيه على جبينه لتمنع أشعة الشمس بينما راحت عيناه تحدقان فى الفضاء البعيد٠٠ فى السكة التى تصل القرية بالنيل علّه يلمح رأسا تتحرك بين الغيطان٠٠ ولما مل أمرنى بأن أسرع إلى "المصلية" لعل أحدهم راقد بها ســاعة القيلولة فعدوت هابطا المنحدر حيث "المصلية" المسقوفة بالغاب والتى بناها جدى بالحجارة البيضاء٠٠ مددت رأسى مــن إحــدى فتحاتهــا الصغيرة وألقيت نظرة ولكن لا أحد٠

وصعدت إليه ولكنى فوجئت بالغريب يقف معه٠٠ ذلك الذى لا يرتاح إليه أحد فى البلدة كلها٠٠ إلا العمدة٠٠ الذى منحه قطعة أرض مــن طرح النهر فبنى حجرة عليها لم يدع إليها أحدا سوى العمدة (ودهشت لما رأيت جدى يلف به حول القارب ليريه كم بذل من جهد فى ســبيل إصلاحه)٠٠ علاقته المريبة بالعمدة على كل لسان٠٠ قيل أنه يعد لــه السهرات فى حجرته هذه البعيدة عن العيــون٠٠ وكّــل هــو بجلــب الحشيش والنساء من البر الآخر بينما يقف هو ليلا على الجسر يراقب الطريق٠٠ خاف منه الصيادون، إذ أنه الوحيد الذى يبيت بالقرب من المراكب المشدودة إلى الشط، ما أن يطلب من أحدهم حصة من السمك حتى يلبى، لكنى أعلم يقينا أن جدى رفض مرارا تلبية رغباته حتــى ولو هدده بالعمدة٠٠ لذا تشاءمت من وقوفه بجواره يتفقان على إنزال القارب فى صباح الغد مع أربعة رجال سيأتى بهم صباحا

غربت الشمس وسرت نسمات المساء الطرية، وأرسلنى جدى لآتى بالعشاء ولأخبرهم بأننى سأبيت الليلة معه فى القارب، ووسط الظلمة الحالكة ونقيق الضفادع وصمت جدى رحت أحلم بالقارب غدا وهو يشق الماء وأنا ممسك بالمجدافين بينما يفرد هو الشباك، وفى الصباح فوجئت به يوقظنى، والغريب جالس وسط جماعة يدخنون "الشيشة" ، تأملتهم·· كانت سحناتهم غريبة·· ليست وجوههم كوجوه الصيادين·· سألت جدى لم لمْ ينتظرهم حتى يظهروا بقواربهم فهم الآن على وشك لم الشباك من النهر ·· لكنه تجاهلنى، ولما ألححت علية وجدته يعنفنى قائلا

- ألم تر وجوههم العابسة أمس ؟!

خلعوا جلابيبهم، قال لهم جدى سنحمله إلى أسفل، ثلاثة يحملون من كل جانب، وساعة اقترابنا من الماء أوصاهم بأن يضغطوا على الدفة بشدة·

حملوا القارب·· نزلوا من فوق الجسر بصعوبة ثم حطوه قبل الماء بخطوات، بدلوا أماكنهم، ثم عد جدى ثلاثا فاحمرت وجوههم ثم برفق وضعوه على حافة النهر، ثم رأيت جدى ينزل فى الماء حتى ركبتيه وشد القارب بهدوء·· لكن الغريب فاجأه برفع الدفة إلى أعلى وساعده الآخرون فى رفعها فغاصت مقدمة القارب فى الماء وجدى يدفع عكس اتجاههم ولكنهم راحوا يدفعون بشدة وجدى يعلو صوته يسبهم ويلعنهم، ولما رأيت الماء يصل إلى رقبة جدى والقارب يغوص تماما صرخت

ورأيتهم يهرولون إلى أعلى، والتفت إلى الماء فلم أعثر على جدى ولا على قاربه الذى لا يبين وجلست أبكى أنتظر خروجهما.

- تمت -

الفهرس

التعريف بالكاتب

- رضا أحمد السيد الأشرم .

- يكتب القصة والمقالة .

- نشرت أعماله بالشعب ، وصباح الخير وروزا ليوسف .

- العنـوان : شبراويش – أجا

- التليفون : ٦٣٦١٨٢٩ / ٠٥٠

رقم الإيداع ١٤١٥٦ / ٢٠٠٢
الترقيم الدولى I.S.B.N.
977-6072 -86-0